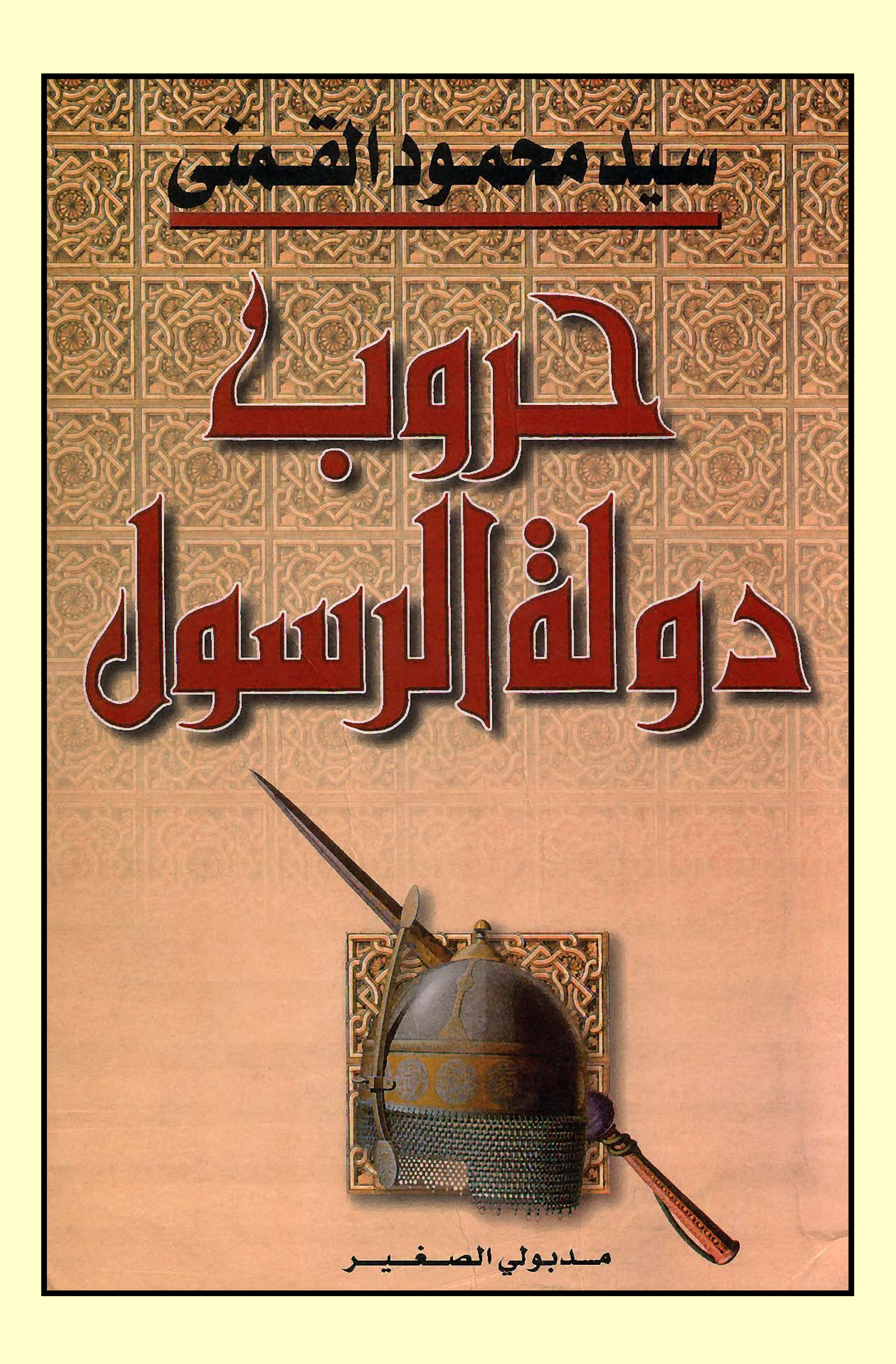


سيد محمود القمنى
حروب دولة الرسول
مدبولي الصغير



حروب دولة الرسول
من أهم الكتب بعد كتاب (الحزب الهاشمي)، وكما كان كتاب (الحزب الهاشمي) كتابا تأسيسيا، ودافعا لعدد من البحوث التي أخذت خطه ومنهجه، فكان بداية لمدرسة، كذلك هذا الكتاب الذي بين يديك.
وبالقدر ذاته الذي أثاره كتاب «الحزب الهاشمي»، جاءت ذات الإثارة في (حروب دولة الرسول)، إذ يعرض باحثنا قراءاته الجديدة للمعارك التي خاضتها دولة الإسلام إبان دورها التأسيسي الأول في عهد المصطفى ﷺ، وما ترتب عليها من نتائج أفرزت صراعات جديدة في سبيل الحرص على استدامة الدولة الناشئة وتقوية دعائمها، إزاء المناخ المعادي الذي أحاط بها.
وإذا كان تاريخ الكتابة العربية في هذه المنطقة، قد ظل يعالجها بمنطق المعجزة والمفاجأة والأحجبة، فإن المفكر الكبير سيد القمني يستمر هنا دون تراجع، على العقلنة والموضعة، ليعالج الأحداث كما حدثت بالفعل، ويقدم لنا صورة النبي محمد الإنسان القائد الفذ ﷺ بحيث لا تنتهي من القراءة إلا وأنت أشد فخرا واعتزازاً بتلك القيادة النموذج والمثل الأروع، وأكثر احتراما لجهد علماء الأمة، كتاب السير والأخبار والتاريخ، وأكثر نفورا من وعاظ الإعلام وأصحاب المصالح، الذين كادوا يذهبون بنا إلى قاع مقلب نفايات الأمم الغوابر.
مدبولي الصغير
KAMEL GRAPHICS

حـروب دولـة الرسـول
«صلى الله عليه وسلم»

الناشر: مكتبة مدبولى الصغير
٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز
تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع: ٩٥/٩٣٤٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: عاطف منصور
مراجعة لغوية: سيد عبدالمعطى
الصف والإخراج الفنى: كريم كمبيوتر

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني

محتويات الجزء الثانى

تأسيس

* مسار التاريخ ١٨٥
* التأسيس التاريخى للأمة ١٩٣
* الوسطية بين النقائض ١٩٩
* صحيفة المعاقل ٢٠٧

الباب الأول

** دية بنى عامر: الوقائع من أحد إلى الخندق ٢١٧
* غدر العربان ٢١٩
* غزوة النضير ٢٢٩
* تأديب العربان ٢٣٧
* غزوة الخندق ٢٤٣

الباب الثانى

** الاعتراف بقيام الدولة ٢٧٣
* إخضاع القبائل ٢٧٥
* غزوة المصطلق ٢٧٩
* غزوة الحديبية ٢٨٥
* فتح خيبر ٣٠١

*الباب الثالث

** فتح الفتوح ٣١٧
* الإسلام وقاء ٣١٩

* مكة: فتـــح الفتـــوح ٣٢٩
* سرايا خالد بن الوليـــــد ٣٤٣
* غـــزوة هــــوازن ٣٤٩
* حصـــار الطـــــائف ٣٥٧

البأب الرابع

** قيام دولة العرب الموحدة ٣٧١
* الـــــــــــبراءة ٣٧٣
* عـــام الوفـــود ٣٨٣
المصـــــادر ٣٩٧
من أعمال المؤلف ٤٠١

تأسيس

مسار التاريخ

﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾

[١٣ الشورى/ قرآن كريم]

فى الجزء الأول من هذا العمل، قدمنا تأسيسا تمهيديا يساعد على تفهم المراحل التى اجتازتها دولة العرب وهى فى طور النشأة، والتى أقام نواتها الأولى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى عاصمته (يثرب)، عبر حروب طويلة خاضها بصحبة رجاله، من أجل تأمين دولته الوليدة، وتوحيد قبائل العربان تحت راية دولة واحدة، وقائد واحد، وعبادة واحدة.

وإعمالا لذلك؛ قمنا بقراءة واقع جزيرة العرب، الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى الفترة الواقعة قبل الدعوة، فكان حديثنا عن حكومة الملأ الابتدائية فى مكة، التى كانت شبه جمهورية، والتى قامت بهدف إحكام سيطرة الأرستقراطية التجارية المكية، على مختلف الشئون، فى خطوات بدأت بتقريش قبائل مكة زمن (قصىّ بن كلاب)، أى جمعهم بعد تفرق، ثم كانت الخطوة الثانية: الإيلاف، للتأليف بين قبائل مكة التجارية، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة وبين الامبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وبينها وبين القبائل المتناثرة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم بين مكة وبين الامبراطوريتين.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث، حيث كان مركز اليمن الزراعى قد تهاوى وكذلك التجارى، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية:

الغساسنة والمناذرة، وذلك فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما أحدث فراغا سياسيا واضحا، كما انهارت مجموعة طرق تجارية أخرى لم يبق آمنا منها سوى الطريق المار بمكة، نتيجة للحرب الضروس التى دارت بين الفرس والروم.

وكان لمنعة الطريق المار بمكة، دور حَوَّلَ مكة من قابضة للعشور على بضاعة الترانزيت المارة بها، إلى مركز للأرستقراطية التجارية التى نهضت بأمر تجارة العالم المعروف آنذاك، وهو الأمر الذى أدى إلى تراكم ثروى عظيم، بخزائن الأرستقراطية المكية، التى أخذت تتاجر لحسابها بثروات العالم.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان محتما أن تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة فى الظهور داخل القبيلة الواحدة، مما أدى إلى تهشيم الأسس الأولية القديمة لروابط العشيرة، وما صاحبه من اختلاف أوضاع الناس فى العملية التجارية التى تقودها مكة، مما ساعد على تحول تدريجى ابتدائى عن الولاء للقبيلة إلى الولاء للطبقة، وظهرت قيم الفردية، التى اتضحت فى إمكان تحديد قيمة الفرد دون جماعة، بتحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر، إلى ما يملكه الفرد من مال، وهكذا جمعت المصالح المادية لأول مرة، بين أفراد من قبائل مختلفة، كما جمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين مختلف القبائل.

وقد لحظنا بما قدمناه من أمثلة، أن كل تلك التطورات لم تصل فوراً إلى نتيجتها الواضحة، فلم يتم تفجير القيم القديمة تفجيراً كاملا، إنما تخفى المحتوى الطبقى الجديد برداء قبلى قديم، عندما سعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح، وإشراك صغار التجار فى قوافلهم التجارية، وهو ما تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين قبليين كبيرين بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين لكن بملامح قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر.

وكان مفترضا أن يؤدى التفاوت الطبقى، وتناقضه مع الشكل القبلى، إلى مرحلة تفجر الشكل لصالح المحتوى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية - ولمصالح الأرستقراطية التجارية تحديداً - مكسبا ثرويا أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقى، لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدها كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره مستوى المرحلة الفكرية.

وعلى المستوى الفكرى، كان الرب القبلى سيد القبيلة وسلفها البعيد، ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، وبينما كان المحتوى الطبقى يسير نحو تفجير الشكل القبلى

لصالح توحد القبائل جميعا، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكنا رفض القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عن الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكان الأرستقراطيون ينحون نحو التوحد المصلحى الذى احتاج أدلجة أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ويكون فى مرتبة تليق بمكانتهم السيادية والإدارية، فوق آلهة الكعبة جميعا، وراعيا غائبا لمصالحهم، كذلك كان المضطهدون والمعدمون والرقيق، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب باتت لا تعدل فى قسمة الأرزاق.

ومن ثم ظل التشرذم القبلى قائما، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاص ومخاض، دون ميلاد حقيقى، بينما انتشر اعتقاد فى مهمة باقية للأرباب القبلية، وهى التشفع لأصحابها لدى الإله الواحد الأعلى، فاتخذوها إليه زلفى، وهو ما كان إخضاعا نفسيا داخليا وذاتيا للقبائل، لملأ مكة وسيادتهم، باعتراف القبائل العربية بسيادة إله الملأ الأعلى على أرباب القبائل.

وبينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى، لصالح توحد كامل، يقضى على التمثيل القبلى، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحساباتها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعا لكل عربان الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين القبلية والتوحد نحو أمة واحدة، بدأت تسرى فى الآفاق نبوءات الحكماء والكهان عن قدوم موحد فرد يتفق فى مواصفاته مع حالة الجزيرة الاجتماعية، فهو لن يأتى ملكا، لأن أى قبيلة سترفض فوراً أن يحكمها ملك من خارج نسبها، لذلك سيأتى الملك بصيغة أخرى، صيغة جامعة مانعة يقبلها الجميع، ومن ثم سرى الإرهاص يلهب الأحاسيس القومية، بمقدم نبى منتظر[١].

وكان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضآلة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات فى حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقى يعود بفوائده على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها فى شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورتها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى

(١) ارجع فى تفاصيل ذلك إلى موضوعنا: دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع/أكتوبر ١٩٨٦، ص ٦ :٢٧، والموضوع نفسه موسعاً فى كتاب بعنوان: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠، انظر أيضاً التأسيس الذى مهدنا به للجزء الأول من كتابنا: حروب دولة الرسول، دار سينا، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.

قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملأ على حالهم المحافظ الرجعي بالاكتناز حتى موسم التجارة.

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الوسطيين مثل أبى بكر بن أبى قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الوسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعى، تلك القراءة التى ادركت غاية خط سير التطور. حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعا، بتوحد ينتهى إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهالكتين.

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القومية الجديدة التى أخذت تسرى مع سفى الرياح فى فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج فى الجزء الأول من هذا العمل، ونعضده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينورى) فى الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر)، ملك الحيرة العربى المسيحى، المنوب عليها من قبل كسرى فارس، ذلك الرجل الذى ظهر شعوره القومى العربى تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذى يزن) العربى اليهودى الذى ثار فى اليمن على الاحتلال الحبشى المسيحى لبلاده، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذى يزن بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط فى تبعية الفرس.

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس فى اليمن لظلمناه ظلما بينا، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماما، فقد استمرت سياسة النعمان فى موالاة القبائل العربية، حتى توجس منه كسرى الذى وعى بدوره شكل التحولات التى تجرى فى الجزيرة ونذرها، فتخلص منه، وأوجز سبب قتله فى خلاصة واضحة معبرة تماما عن خط سير الأحداث، حيث قال:

> وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتى الملك عن آل عمرو ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم فى ذلك كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا[٢].

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغير على سواد العراق كراً وفراً[٣]، ثم تصاعدت

---

(٢) الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٣، ١٠٩، ١١٠.
(٣) الأصفهانى: الأغانى، المكتبة الحيدرية، ط ٢، النجف، ج ٢٠، ص ١٣٢.

المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية[٤]، حتى تأتى موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية، ذلك النصر الذى دوى أمره يرجع صداه بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره. مع فرح عام شمل الجزيرة جميعا، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومى واضح لاشية فيه، ليلقى بصداه فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موحد العرب، النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعقب على نصر ذى قار قائلا: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»[٥].

وفى مكة، كان أبرز من وعى ممكنات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرباب القبلية جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نشأ يتيما فقيرا كادحا، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادى، بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فخبر الأمرين، وعاش الحالين، وعاين الطبقتين، مما كان كفيلا بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملأ مكة، ابتداء بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحد الآتى، ومن ثم كان إعلانه كفران قريش ﴿قل يا أيها الكافرون..﴾، وسلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لقواعد التجارة التى قعدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التنموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سنن الكون التاريخية ويلتقى معها، حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى رواية ابن حنبل:

---

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ١٢٩.
(٥) خليفة بن خياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العانى، ط ١، بغداد، ١٩٦٧، ص ٤٣.

ابن النبى قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : أى مال نتخذ؟ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يارسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أى مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»(٦).

وتكرر موقفه من المال فى مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يوما لعبد الرحمن ابن عوف ـ رضى الله عنه ـ : «ما بطأ بك ياعبد الرحمن؟ قال: ماذاك يا رسول الله، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك آخر أصحابى لحوقا بى يوم القيامة، فأقول: ماحبسك عنى، فيقول المال: كنت محاسبا محبوسا حتى الآن»(٧).

وكان طبيعيا أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشى، إنها كنوز كسرى وقيصر بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (٥/القصص).

ويروى البلاذرى: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا جلس فى المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد منّ الله عليهم من بيننا»(٨).

وإعمالا لذلك بات واضحا أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الايات الكريمة بقولها: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (١٣ الشورى)، ومن هنا، وفى تلك المرحلة، قام الإسلام يضرب القبلية، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما دعا إليه

---

(٦) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٧) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحه، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٩.

(٨) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٢١، ص ١٥٦.

الوحي في قوله: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (١١٣/ التوبة).

وقد أفصحت الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بزمن بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماما دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضرى الكيفى المتجاوز للتجمع القبلى الكمى، وهو المبدأ الوارد فى نصها المضىء فى مبتداها: «هذا كتاب من محمد النبى، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»[٩].

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهى إسقاط نظام الملأ المكى، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام فى أساسه الخرسانى، بقطع طريق الإيلاف التجارى المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول فى يثرب.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبدالرءوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج ٢، ص ٢٤١.

التأسيس التاريخى للأمة

«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»

[النبى محمد]

كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجا جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحي المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكُ من المشركين﴾ (١٢٠/ النحل)، فإنها جعلت من محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ (١٠٤/ آل عمران).
﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (١١٠/ آل عمران).
﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ (٩٢/ الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خاتما، وبمن سلف من أنبيائهم أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربا جامعا لوحدتهم فى كيان اجتماعى عقدى واحد.

ومن البداية كان واضحا أن هذه الأمة الجديدة هى الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جدا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل فى موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس فى ذى قار.

ومن هنا أضحى واضحا أن مصطلح أمة فى العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهى مع معنى المدنية والحضارة.

ومنعا لأى التباس فى عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالى الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول:

> «أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»[(١٠)].

كان التوحيد الربوبى ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لابد أن يرافقه توحد اثنى جنسى يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب فى الوقت ذاته، لتتحقق الوحدة المرجوة، ومن ثم كان تأكيد النبى على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبى يتمثل فى الالتفاف حول لاء واحدة هى قول لا إله إلا الله، والقبول بالانضواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل فى الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمى للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العربان من الوضع القبلى إلى الوضع القومى.

ولتحقيق الهدف؛ كان لابد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدى والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شراذم العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائى كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن

---

(١٠) نقلاً عن ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص ١٦٦، ١٦٩.

ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخى مع التأريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة، ورغم أن البعض اليوم يقعّد تلك الحضارات فى مجلس التاريخ العربى، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمنى، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوى وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطى الذى تطور عنه الخط العربى بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جليا إلا مع دخول الرسملة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقى، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس فى وقعة ذى قار، وعندما تمكن ابن ذى يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لابد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطىء قدم راسخ فى عمق الزمان الماضى، فأى أمة لابد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره فى الماضى البعيد المؤسس للتطور التالى المنشىء للأمم أصلا.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسى العقدى لإلقائه فى رحم التاريخ القديم، بربط النبى محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة فى القصص الدينى، ليصبح تاريخ الامة الجديدة تاريخا نبويا، ومعرفيا سماويا، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوى القبل خلقى، فتصبح لغة الملأ السماوى، ولغة آدم أبو البشر جميعا فى الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة من بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء فى سياق تاريخى كان هدفه النهائى هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية تطورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبى وأمة المسلمين، ويصبح جميع الأنبياء فى بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بنى إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود فى الشام واليمن، أو فى العراق كما فى حالة إبراهيم، أو فى مصر كما فى حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوى، وجدلهم المعرفى والحضارى مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخى للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذى سيلتقى تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هى ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء فى جميع الأمم.

ومن هنا تتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمثابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضى الأمة.

ولأن الغرض (توحد) فى أمة (مُوَحَّدة) فى عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيرى على بعض الآراء والعقائد فى الديانات السابقة والتى دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما فى بعض حالات أنبياء اليهودية وفى حالة يسوع المسيح. لتصبح القيم التى مثلوها هى القيم التى تتساوق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبى التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب فى دولة مركزية واحدة.

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء﴾ (١٥٩/ الأنعام)، وهى الآيات التى تعنى أن تلك القبائل إنما كانت فى الأصل على الدين النبوى التوحيدى الذى أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعاً، مما يعنى أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخى للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا﴾ (١٣/الشورى)،

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية فى يثرب كان لابد من مركز تأسيسى يمثل المركز الحكومى الإدارى، وفى ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا، ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة»، لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذى بركت فيه ويبنى فيه المسجد الذى تقدس فى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا»، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة.

وفى المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكد المعنى المدنى للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية فى آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ (٩٧/التوبة).

﴿ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر﴾ (٩٨/التوبة).

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ (١٠١/ التوبة).

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾ (١٤ / الحجرات).

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبة الحضارية، لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيا، لظرفها الاقتصادى والمجتمعى، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمها، فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا »[11] .

ومن ثم تقدست أيضا تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالا ومقدسا. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء اليثربية عليهم، مع الظفر الذى تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار فى طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكى عن حروب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقريش وحصارها اقتصاديا، فقال: «كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهتكت أموالنا»[12] .

---

(١١) الثعلبى: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص ٢٤٩ .

(١٢) المقدسى: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج ٦، ص ٩٤ .

الوسطية بين النقائض

﴿إن الديـــن عنـــد اللـــه الإســـلام﴾

[١٩ آل عمران/ قرآن كريم]

كان يوم بعاث ـ وبعاث موضع بالمدينة ـ كانت فيه وقعة عظيمة، قتل فيه خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل. وقد روى البخارى فى صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبى أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة، وقد افترق ملاؤهم وقتل سراتهم»(١٣).

هذا نص ابن كثير الواضح اللماح، الذى يعلن فى إيجاز بليغ، بلاغا واضح المعانى، حول الظروف التى انعقدت فيها الاتصالات بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل، حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب ـ من خزرج وأوس ـ المنهار والمتفسخ، بعد مقتلة يوم بعاث بين القبيلتين، وقتل الرؤوس منهم والسادة، مما جعلهم فراغا من أصحاب (الكاريزما) الرئاسية والحنكة المشيخية، وهو ما رآه ابن كثير ترتيبا ربانيا قدمه الله هدية لرسوله، بقتل الرؤوس الكبرى من كلتا القبيلتين، مما هيأهم لقبول

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨، ج ٣، ص ١٤٦.

السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون منافسين أقوياء.

وغنى عن البيان أن عاملا آخر أساسياً، هيأ لذلك الحلف ومهد له، هو المصاهرة الوثيقة التى سبق أن تمت بين الخزرج وبين بيت النبى الهاشمى، ناهيك عن كون موقف الخزرج - تحديداً، إضافة لقرابة الخئولة - كان رداً واضحا على قريش وسادة البيت الأموى، إزاء وقفتهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومى معبس ومضرس، وهى الوقفة التى عمد إليها ملأ مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعا، كى لا تشكل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى، ولإجهاض قوتها حتى لا تطالب بنصيب من الجعالات التى كان يدفعها ملأ مكة للقبائل القائمة على الطريق التجارى. بحيث أسقطت مكة يثرب من حساباتها تماما، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيسا على ذلك استشرف خزرج يثرب الوعد النبوى بوعى نافذ، لوحدة تلم الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتى الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتأريخ، وماتقدمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعا تستقبل سيدها الجديد المهاجر بالترحاب، وتصدح بنشيد: «طلع البدر علينا» بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمنحوا النبى والمهاجرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم، فإن العين الحصيفة المدققة، والقراءة المحايدة المتأنية، لا تجد ذلك الزعم أبداً، حيث نجد وفد يثرب الذى التقى بالنبى فى عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجى وحده وهم أخوال النبى، وأن اللقاء التالى بعد عام كان يضم اثنى عشر، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة، يضم ثلاثة وسبعين، منهم أحد عشر أوسيا فقط، وستون خزرجيا، وهو ما يشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفى مستوى آخر - يأخذ بسوء الظن - يمكن احتساب أوس العقد دسيسة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخى، لتسقط أخباره، وهو أمر وارد فى ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود الجواسيس كان أمراً مألوفا، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملأ مكة، وهم من قال الوحى بشأنهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ (٢٧/ الأنفال).

ثم هناك مستوى ثالث فى قراءة موقف الأوس، يتمثل فى مباعدة أبى عامر بن عمرو بن صيفى الأوسى مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارها للنبى والمهاجرين، ومشاركته بعد ذلك فى وقعة أحد ضد النبى. إلا أن الواضح الجلى هو أن النبى قد دخل يثرب فى حمى

أخواله الخزرج أساسا، مع تعضيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يفصح عن قدر شديد من المبالغة فى روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعا قبل الهجرة مباشرة، ويدلل عليه ما حدث فى وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبى من جمع أكثر من ثلثمائة رجل معه فى الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر فى المدينة للنبى، وقدرته على حشد قوة تماثل عشرة أضعاف ما جمعه فى بدر، وهو ما يشير إلى انضمام جموع أخرى متأخرة إلى حلف النبى اليثربى.

لكن ذلك لا يعنى سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، متهيأة لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التى أتيحت لها دون أى موقع آخر بالجزيرة، ففيها كان أخوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمى، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملا جوهريا فى وضع التاريخ الدينى موضع احترام من عرب يثرب، إضافة إلى النبوءة التوراتية التى كانت تتواتر هناك عن مقدم نبى آخر الزمان، كما كان التوحيد اليهودى مدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هيأهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية، وقد تهيأت يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادى كعاصمة للدولة المقبلة، فى تحولها التدريجى للتوحد إيمانيا، بل وطبقيا، بذوبانها فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم، وتحولت الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل ووحدة عسكرية، مقاتلة، بدأت تداهم بدورياتها طريق الإيلاف الشامى، لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادى.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولاها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبى وقاص. ورغم أن كثيراً من تلك السرايا الأولى لم تحقق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أى أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذى لاقته تلك الغزوات حيث تمكن النبى من سلخ إيلاف بنى مدلج، وأخذ عليهم عهود الموادعة، كما تمكن من عقد عقود مكتوبة مع بنى ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكنت سرية عبد الله بن جحش، من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكى للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت، وسلبت، وأسرت، لتعلن القوة الجديدة فى يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد،

بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبى للقدس قبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودى، ذلك الاستخفاف الذى استهجنته قريش تعلن فى العربان أن محمداً قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبى عليهم وحيا يقول: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ (٢١٧/البقرة).

وبينما ينقطع قمح يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لتمنع شحنات القمح المصرى من الوصول إلى مكة، ودوريات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يردد لسان حال قريش وهى تقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا محمداً، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى اليمن فى الشتاء»(١٤).

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبى سفيان بن حرب، وهى وقعة بدر الكبرى، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبى فى العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، من ميثاق دفاعى إلى حلف هجومى محارب، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها - مهاجرون وأنصار - إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تماما، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، ممثلة شخصيا فى رسول الله ورمزيا فى ذات الله، وإلى المصالح المادية المباشرة التى جمعت بالفعل أعضاء الدولة، وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التى لعبت دوراً عظيما فى جذب الأتباع من مستضعفى القبائل ومحاريبهم، بعد أن ظل النبى - صلى الله عليه وسلم - يدعو فى مكة ثلاثة عشر عاما دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالى المائة نفر، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلّة الغنيمة من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية، وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذى سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط فى جيش المسلمين، وهو ما يفصح عنه إسلام (عمرو بن العاص) الذى ذهب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليجيبه النبى -

---

(١٤) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٤٥٨.

صلى الله عليه وسلم - بكل صراحة ووضوح: «نعما بالمال الصالح للرجل الصالح». ثم أرسله قائداً عسكريا غازيا وهو يقول له: «إنى أريد أن أبعثك وجها يسلمك الله فيه ويغنمك، وأزغب لك زغبة من المال»، ومن ثم كان إعلان النبى - صلى الله عليه وسلم - تميز عمرو بقوله: «أسلم الناس وآمن عمرو»[١٥].

ومع النصر البدرى الساحق، أصبح النبى مرموق الود من القبائل، خاصة المتاخمة ليثرب، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق، دون أن تعلن هذه القبائل ولاءها الدينى لدولة النبى بإشهارها الإسلام، كان الغرض عسكريا وسياسيا فى هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة، بهدف مرحلى تكتيكى على الطريق الاستراتيجى الطويل، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية، وتفكيك إيلافها مع القبائل، وإسقاط هيبتها أمام العربان، وقد لحق نتيجة ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرسانى لمنظومة مكة المتمثل فى ثروتها التجارية، وهو ما حدا بالقبائل إلى مراجعة موقفها من قريش، إزاء القوة اليثربية الطالعة، فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية فى التحسن المطّرد، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية، سلاحا، ومالا، ومنحتهم مزيداً من الثقة النفسية فى أنفسهم وفى مشروعهم وفى قائدهم، فامتلأوا - بتلك القوة المعنوية - جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، بل وقتل أى شخص يتجرأ على معارضة الدولة.

هذا - بالطبع - مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعى للدولة، كناتج طبيعى لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهى النتائج التى أخذت تتضح فى تراجعات الدولة الوليدة عن الأممية المطلقة والأخوة المطلقة التى كادت فى بدئها أن تكون مشاعا، وذلك بعقد صحيفة المعاقل فى مرحلة تالية، التى كانت إعلانا مكتوبا سافراً عن سلطة النبى كسيد مطلق ليثرب جميعا، ومن ثم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثل فى تراجع دقيق ومحسوب عن الأممية المطلقة، لتأخذ الدولة السمت الوسطى بين الأممية، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية.

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة، حيث لحظنا - كما شرحنا فى الجزء الأول من هذا العمل - بداية توازن الدولة بين النقائض، فكانت دعوتها لتوحد أممى تحت راية واحدة وفى ظل سيادة دولة موحدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، وضمت فى شكلها الاقتصادى تقاربا ماديا زاد من ذلك التوحد، لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضا الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقى، ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت

---

(١٥) السهيلى: الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج ٣، ص ١٩٣.

المستضعفين فى الوحى والأحاديث، بدأت الدولة تفسح بداخلها فجوات المجتمع الطبقى، ثم فجوات المجتمع القبلى معا، حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مدعاة لوضوح شكل الدولة فى أضمومات قبلية محزمة وموثقة بوثاق الدولة الواحدة. أما إذا تتبعنا أنساب العشرة المبشرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلا قبليا وسياديا لأهم البطون القرشية، فهذا أبو بكر وطلحة يمثلان تيم، وهذا على يمثل هاشما، وهذا عثمان يمثل أمية، وهذا عمر وسعيد بن زيد يمثلان عدى، وهذا عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص يمثلان زهرة، وهذا الزبير يمثل أسداً، وهذا أبو عبيدة يمثل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذى أصبح يوازى فى يثرب، حكومة الملأ القرشية فى مكة. (وقد لحظ ذلك بذكاء الأستاذ خليل عبدالكريم).

وتأسيسا على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مؤجلا حتى يأتى الله بأمره، لكن أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملأ القرشى، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على سادتها المترفين، أولئك المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن بالاعتماد على التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى ستمسك بأعنتها قبيلة النبى: قريش، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التى وضحت فى تحرك رحم النبى لأهله الهاشميين فى وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أى من بنى هاشم، ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصب الأمر كله بيد الطبقة التى سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقى منظومة قريش القبلية، ليظل حال التاريخ العربى والإسلامى بعد ذلك وحتى اليوم، إعمالا للمقدس واتباعا له، يظل واقفا على حافة الوضع الاجتماعى الاقتصادى المعروف بالإقطاع التجارى، ويبقى المأثور مصراً على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.

ويتضح ذلك جليا عندما نقرأ المراحل اللاحقة فى تطور أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها، حيث بدأت تفتح صدرها تماما للتجار، خاصة بعد فتح مكة، وحيث احتلت طبقتهم فى الإسلام مكانا، كان مكانهم الطبيعى فى الفرز التطورى، ولا ننسى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان هو من يحاول دوما جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته، وبعد هذه النقلات سنلحظ دون عناء كيف خففت السور اللاحقة والمتأخرة - التى تناغمت بصدقها مع متغيرات الواقع - من حدتها إزاء الأثرياء، وهدأ تنديدها بهم، مع خفوت متساوق فى الاهتمام بقضايا المستضعفين، بعد أن كان هؤلاء المستضعفون المقاتلون مادة الحركة ووقود حروبها، وتحول من بقى منهم حيا إلى طبقة كبار الملاك، وهو ما يكفى أن نذكر له مثلا واحداً فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدا وتقشفا وورعا، وكان أرق نظرائه حالا وأقلهم مالا.

> عـن علي رضي الله عنه.. «لقـد رأيتني مع رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وإني لأربط الحجـر على بطني من الجـوع، وإن صدقتي اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار»[١٦].

ثم يمكننا أن نلحظ المال نفسه الذى كان محل هجوم شرس وضار، وأُحل للمسلمين مصادرته بالغزو، وهو يتحول ليصبح بالإمكان بقاؤه وتناميه، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، ويبيت كسبا حـلالا، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا. لقد كانت خطوات التاريخ فى طريقها إلى إنضاج الطبقة التجارية ـ وليس الغاؤها ـ فى سبيل كيان سيادى يسد الفراغ السياسى تحت لواء عقيدة عقدتها حتمية السنن الكونية.

وجولة سريعة للعين فى كتبنا التاريخية ستلحظ دون عناء يذكر كيف أضحت التجارة فى أحـاديث النبى هى أطيب مكاسب المؤمن[١٧]، و«أن التـاجـر الأمين مع الكرام البـررة يوم القيامة»[١٨]، ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية، فقد طالهم الوعد جميعا، ثم لابد أن نلحظ أنه لم تفرض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة، أما أبو يوسف فيورد لنا حادثة لها فى سياقنا هذا دلالاتها الواضحة، حيث يقول:

> أن السعر غلا فى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الناس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن السعر قد غلا، فوظف وظيفة نقوم عليها، فقال: إن الرخص والغلاء بيد الله، وليس لنا أن نجـوز أمـر الله وقضاءه[١٩].

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تماما، بل ولم يعطهم النبى من أموال الفىء باعتبارهم فى كفالة غيرهم من الأحرار[٢٠]، ثم نجد النبى بعد ذلك يهدى بنفسه أعداداً من العبيد لآخرين، كما فى أمثلة عديدة، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاعة (الشيماء) ولغيرها، ويتقبل الهدايا عبيداً أيضا. وهو ما سنجده فى مواضعه من هذا العمل.

---

(١٦) الحلبى: سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، مج ٢، ص ٤٧٣. ويشرح الحلبى أن تلك كانت صدقة العام الواحد فقط.

(١٧) الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٢٠١٢.

(١٨) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد سماحة، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ط ١، ١٩٣٨، ص ٣٧.

(١٩) أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٩.

(٢٠) ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ص ٧٣.

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التي تتوازن بين النقائض، على كل المستويات: بين القبلية وبين الطبقية، بين العشائرية وبين الأممية، بين الوحدة الشاملة وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل فى شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبى الإسلام، وبين الوحدانية المطلقة للإله التى لا تقبل شراكة، ومن ثم كانت التراجعات التى اعترفت بمقدسات القرشيين والتى كانت تعد وثنيات، كالاعتراف بالكعبة، ثم فى فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعى، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسى له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم)، معبد يجتمع عنده جميع العربان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول فى المقام الأول، وسدنته الهاشميون آل البيت.

كذلك تم الوقوف وسطيا بين نقائض أخرى، وبين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنسابا، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودى، متمثلا فى سبايا تأتى من الحروب وانتصارات الدولة، ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تؤسلم جميع الناس تحت رايتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع موادعتها وعقد المحالفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة، مع ما فرضته ظروف أخرى متأخرة، فى غزوات النبى على أصحاب الأراضى الخصبة، وقيمة تلك الأراضى التى كان يمكن أن تبور تماما، مما أدى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تقرّهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطور بعد ذلك فى نظام الجزية.

ثم تطور آخر على ذات الخط بين النقائض، عندما صب الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتلأت خزائنها بالخيرات، ليأتى نداء جديد بأن من يعلن إسلامه معترفا بوحدانية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، علي أن يدفع الضرائب للدولة فى نظامى الزكاة والصدقة، وهي مجموعة الخطوات التي اقتربت مرة وتباعدت مرة من القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام. وهى مجموعة التوازنات الوسطية التى تأرجحت مع المستجدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائض خلقت فجوات دائمة فى تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كفتاه إزاء الموقف الوسطى على الخط الفاصل بين توازنات النقائض، مما أعطى الفرصة دوما لأقدار السياسة، وبحرفية وسطاء الساسة المحترفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كفتى الميزان أثقالا مناسبة دوما.

صحيفة المعاقل

«لليهـــود دينهـــم وللمســلمين دينهـــم»

[نص بصحيفة المعاقل]

بين بدر وأحد لم تتوقف سرايا المسلمين عن مداهمة طريق الإيلاف، وشن حملاتها التأديبية على القبائل، مع ظاهرة جديدة تمثلت فى شرع نظام الاغتيال، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسراتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذى رثى قتلى بدر شعراً. وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الظافرة من بدر الكبرى، كان الوحى يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك فى النص ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (٦٠/ الأنفال)، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكى الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبى - صلى الله عليه وسلم - لرجاله: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه»، وهو ما تم تنفيذه بالفعل فى عدة رؤوس يهودية، وهو المنحى الذى جاءت مفاصله فى آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتنهى العمل بآيات من قبيل ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ (٦/ الكافرون)، وتلغى الصفح الجميل والصبر الأجمل، لتؤكد معنى جديداً هو ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩/ آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى والعقدى، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذى كان سببه الوضع الخاص جداً باليهود، كأصحاب كتاب سماوى ودستور عقدى وأيديولوجيا تاريخية موثقة، وهو ما جعلهم المنكر الحضارى الحى لنبوة النبى العربى، مما كان يشكل خطراً دائما وحقيقيا على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية، وهو ما صب فى إعلان واضح يسفر عن الهدف، فيما جاء مرويا عن الزهرى عن عروة:

> نزل جبريل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (٥٨/ الأنفال)، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنا أخاف من بنى قينقاع، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة[٢١].

ومن ثم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضى عليها، وذلك فى الوقعة المعروفة بوقعة أحد، التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدت بالبيهقى إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «.. وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل»[٢٢].

وترنحت الدولة (الطالعة)، وكان لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودءوب لايكل ولا يهدأ، لإصلاح ماأفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع فى النيل من سلطان الدولة، ولما لم يكن ممكنا الخروج فى ذلك الظرف إلى قريش، والجروح لم تزل طازجة، ومعنويات المسلمين فى حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامى إلى اجتثاث الرؤوس التى أخذت ترتفع وتتطاول على السلطان المحمدى فى يثرب أو خارجها، ومن ثم تدحرجت رؤوس عدة، منها رأس (سلام بن أبى الحقيق) المعروف بأبى رافع، و(أبى عفك عمرو بن عوف)، و(عصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة)، وخالد بن سفيان سيد هذيل، وفاطمة بنت ربيعة زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها، ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية، إعلانا عن أن السيف المحمدى وإن كسرت منه الذؤابة فى أحد، فإنه مازال قويا مقتدراً بل وعنيفا، إعلانا عن

---

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢١٦.

إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

بهزيمة أحد كان لابد من وقفة متأنية، تؤجل - مؤقتا - بعض القرارات، حتى يأتي الله بأمره، ويستعيد المسلمون - إبان ذلك التأجيل - قوتهم وتعافيهم المعنوى، كذلك دفعت الهزيمة فى أحد سيد يثرب ليفصح لرؤوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة، كى لا تتكرر مأساة أحد بهذا العنف، فهذا (أبو قتادة الأنصارى) تهزه مناظر أهله مذبوحين فى أحد، ومشهد الحمزة مبقوراً، فيشير بالتمثيل بجثث قتلى قريش فى أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - مفصحا برسالة تقول:

يا أبا قتادة:

«إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى **إن طالت بك مدة**، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن تبطر قريش، **لأخبرتها بما لها عند الله**»[٢٣].

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمعه وهو يقول فى طبقاته الكبرى: «إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان **يحب أن يصرف إلى الكعبة**.. فنزلت عليه: قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فوجه إلى الكعبة.. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى إلى بيت المقدس.. ونزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذه السنة بزكاة الفطر»[٢٤].

وهو ذات ما أكده ابن الأثير فى سرده لأحداث العام الثانى للهجرة، ولحظه ابن كثير الدمشقى، وهو يسرد أحداث ينسبها للعام الثانى للهجرة[٢٥]، فى قوله:

وفيها - أى عام ٢ هـ - حولت القبلة.. وفيها فرض صيام رمضان.. وفيها فرضت زكاة النصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل يثرب واليهود.. صانعوا المسلمين **وأظهر الإسلام** طائفة كثيرة من المشركين واليهود، وهم فى الباطن منافقون.. قال ابن جرير: وفيها كتب

(٢٣) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٣، ٥، ٨.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج ٢، ص ١١٥، ١١٦.

الرسول - صلى الله عليـــه وسلم - صحيفة المعاقل، وكانت معلقة بسيفه[٢٦].

إن حديث ابن كثير هنا يحسم أموراً كثيرة مختلف عليها بين كتاب السير والأخبار، فهناك من يشير إلى أن صحيفة المعاقل قد كتبت بين أهل يثرب جميعا وبين المسلمين، وأنها كتبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثانى للهجرة. وأهمية حديث المعاقل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سببته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير فى مبتدأ فصله مع الكثرة القائلة بكتابة المعاقل مبكراً وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعا قد عمها الإيمان، وبحيث يظهر النبى - صلى الله عليه وسلم - سيداً يملك كل مقومات السيادة من الوهلة الأولى، فخضع لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده، وقد ذهبنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبهنا إلى ضرورة إعادة النظر فى تزمين صحيفة المعاقل، الدكتور عبد الهادى عبد الرحمن[٢٧]، وكانت إعادة النظر مدعاة لنتيجة مفادها إن القول بعقد المعاقل عند الهجرة مباشرة، أمر يخالف معطيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل فى ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمهاجرة النبى ضعيفا متخفيا هاربا من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله فى يثرب، ولاجئا مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها، وهو ما يحيط الصورة - التى رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثاربة لسيدهم المكى - بكثير من الشك وعدم القبول، حيث تناقض تلك الصورة الإخبارية بشدة بنود الصحيفة التعاقلية، التى وضعت أمر يثرب جميعا بيد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذات الوقت الذى تؤكد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهوداً أو وثنيين، وإن من دخل منهم فى حلف الدعوة كان فى الغالب من المنافقين أو الدسائس على المسلمين، ومن هنا رجع ابن كثير عما قال فى البداية ليؤخر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث تبدو النتائج متفقة مع مقدماتها من أحداث، فاختار زمنا تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

وللتحديد أو محاولة التدقيق فى الزمن الذى كتبت فيه المعاقل، نجد أن غزوة قينقاع لم يرد فيها - فى أى رواية إخبارية - أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمنابذة يهود

---

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٧.

(٢٧) عبدالهادى عبدالرحمن: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعاقل بعد غزوة بدر مباشرة.

قينقاع للنبى بنقض العهود، كما حدث فى وقائع أخرى تالية مع قبائل يهودية أخرى، وهو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كتبت بعد، ومن هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التى تمت بعد هزيمة المسلمين فى أحد.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المناوئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقض على القوة العسكرية الإسلامية التى تنامت وتضخمت منذ بدر الكبرى، وكان مقتل ذلك العدد من المسلمين فى أحد غير ذى تأثير حقيقى، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترتيق وإصلاح سريعين، ومن ثم نجد الحكاية الإخبارية تأتينا ببعض الروايات التى تؤكد أن حملة النبى على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة (بئر معونة)[28]، ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمن، وبعد وقعة الرجيع التى وقّتها الواقدى فى صفر سنة أربع للهجرة[29]، ونعلم أيضاً أن بنى النضير قد نابذوا النبى بنقض العهود والمواثيق فى تلك الغزوة[30]، مما يشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير، وفى الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير، وهو ما يمكن الكشف عنه فى قراءة البيهقى:

> اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلا من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقى بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوا وآمنوا بك، آمنا بك، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب وترك بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم[31].

ويفهم من الحديث هنا أن يهوداً أرادت اختبار نبوة النبى بالحوار المعرفى والفقهى الدينى، لكن النبى رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية، وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهوداً تمت سوى صحيفة المعاقل، وهو الأمر الذى يعضد ما ذهبنا إليه فى توقيع المعاقل إبان محنة تطاول الرؤوس بعد هزيمة أحد، وما يبدو لنا أن المعاقل قد تمت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التى

---

(٢٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.
(٢٩) نفسه: ج ٤، ص ٦٤.
(٣٠) نفسه: ج ٤، ص ٧٧.
(٣١) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٩.

حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعا للسلطان النبوى، وتأمين الجبهة الداخلية، فى نفس الوقت الذى قدمت فيه دولة الإسلام تنازلا تراجعيا وضح فى النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[٣٢]. وإذا كان الإخباريون يصرون على ربط صحيفة المعاقل زمنيا بمجموعة أخرى من الإجراءات تمت فى ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربى.. إلخ، فمن المحتمل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمت ضمن مجموعة التراجعات التى أفرزتها أحد.

لقد كانت الحسابات التى سبقت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حسابا لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبى يحاول استمالة اليهود والتقرب منهم لتحييدهم على الأقل، ففرض على أتباعه صوم يوم الغفران اليهودى (يوم كيبور/ عيد الفصح)، وهو اليوم الأهم والأعظم فى تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين، بل واتجه النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أتباعه وجهة اليهود فى الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تمجد أنبياء بنى إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتمجد التوراة ككتاب سماوى صادق ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة) و﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ (٤٣ المائدة)، بل وتمجد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضلهم على العالمين.

ومع ذلك ظل اليهود يهوداً، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيداً، رغم كل الإشارات والتوضيحات التى كانت تصر على تأكيد أن محمداً من ذات النسل، فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة، وأن انتظار اليهود لمخلص نبوى مقبل يجد صداه فى النبى العربى الذى يحقق نبوءة التوراة، حتى جاءت وقعة (أحد) لتستدعى تحركا سريعا يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين المدينة داخليا، فتمت صحيفة المعاقل كما جاء خبرها السريع عند البيهقى، مع تحرك آخر على مفصل قريش يهدىء من عوارمها ويطمئنها، فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودى مع تقرير الصوم العربى الرمضانى، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله»[٣٣]. ويؤكد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفى السنة

---

(٣٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ٦١.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٨.

الثانية كانت وقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان فى السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة»(٣٤).

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضانى قد فرض فى شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت فى رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون، ومتى أهلوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مفطرين، وهى العادة مع كتب الأخبار التى تفصل تلك الأمور وتدقق بشأنها فى كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة فى غزوة (قريظة)، وما حدث بشأن الصيام الرمضانى فى فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضانى لو كان قد فرض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت فى شهر رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها فى سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث مما يعنى وجوب تأجيل فرض الصيام الرمضانى والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعاقل معا إلى الفترة التى افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث فى سياق واحد يناسب بعضه بعضا، وهو الفرض الذى يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وإعمالا لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التى تحدثت عن التوراة وهداها ونورها، وعن تفضيل الله لبنى إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان.. إلخ، كل ذلك أفرغ محتواه فى الصحيفة التى عقدت بين جميع أطراف القوى فى يثرب، والتى كانت أولا: نتيجة لتحول حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مواطنين على ذات الدرجة، وكانت ثانيا: محاولة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد بعد التهاوى المعنوى فى هزيمة أحد، لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مؤقتا، كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة - هذا إن كان فرضنا صادقا - فى رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعنى بالضرورة ضرب الرمز الدينى المكى، ورسالة موجزة برقية لأهل مكة أنفسهم تهدىء من روعهم إزاء سيد يثرب، أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سببا واضحا يعلل التحول عن أورشليم إلى مكة، سوى ما ردده الإخباريون مع الطبرى أن النبى: «كان يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله.. قد نرى تقلب وجهك فى السماء»(٣٥).

ثم جاء التحول إلى الصيام العربى ليلتقى مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يسمى يوم العروبة) فى وقت مبكر، ليعلن فى إشارات واضحة منحى التحول، أما أبرز الشواهد على أن

---

(٣٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٦/ معلومات النشر.

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٤١٦.

صحيفة المعاقل قد عقدت فى ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها علقت بسيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ما لم يكن ممكنا زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنى لجميع سكان يثرب وللمنافقين، ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المؤسسية، ففرضت الضرائب (الزكاة)، أما أهم بنود الصحيفة التى كانت ترفرف على سيف النبى، فهى تلك التى قالت فى مفتتحها: «هذا كتاب من محمد النبى الأمى» وهو مايشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبى السيادية، فرغم أن المعاقل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن متكافئة، لأن صيغتها وأسلوبها وإيحاءاتها، ناهيك عن ذلك الاستهلال فى مفتتحها تشكل قراراً صادراً من سيد قوى فوق بقية الأطراف، فهى بمثابة كتاب أمان من النبى لسكان يثرب، إضافة إلى أن الصياغة لم تقل: (هذا كتاب من محمد بن عبد الله)، إنما فرضت صفة النبوة على جميع الموقعين أدناها، وهو الأمر الذى استثمر رغبة اليهود والمشركين اليثارية فى الأمان بعد سل سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلاما مشروطا بسيادة المسلمين ونبيهم، وهو ما توضحه قراءة بقية بنود صحيفة المعاقل.

وضمن تلك البنود يأتى النص الذى يؤكد أن المعاقل قد تمت..

«.. بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم،.. **وإنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ** وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،.. وإن بطانة اليهود كأنفسهم، **وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد**.. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده، **فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله**»[٣٦].

والمطالع لهذه البنود سيلمس فوراً أمراً شديد الأهمية، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادى يرفع عبئهم عن إخوانهم اليثارية، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك، فالنص يؤكد «المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط»، ومن ثم

---

(٣٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلهم الأولى «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى»، أما البند الذى يؤكد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عقدت قبل بدر الكبرى، فهو تلك السلطة الواضحة فى إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى الخروج من المدينة لليهودى لا يتم إلا بإذن محمد - صلى الله عليه وسلم - والأكثر بلاغة فى كل هذا، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليثربية فى معاقلها، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليثربية الأصيلة، بحيث اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعى، ليتحولوا من لاجئين إلى مواطنين، بل أفصح الأمر عما هو أشد بيانا، فغدا الأنصار تابعين لا مجيرين ومتبوعين.

وكانت النغمة العروبية الواضحة فى صيام رمضان وتقديس يوم العروبة، ثم العودة عن اغتراب القبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية، إشارة واضحة إلى بدء التخلى عن ممالأة يهود المدينة، والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد فى النهاية إلى أهل الله القرشيين، وأن القدس كله فى محل كعبتهم، وهى الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام لا يهدد أبداً مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دوما بالاقتصادية، وأن خط سير التاريخ يحث خطاه إلى نتائجه النهائية، وأن الحروب جميعا ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يمثلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى - صلى الله عليه وسلم.

أما المعجزة القومية الكبرى التى قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل فى إعلان أن رب الأديان الكبرى المحيطة بالجزيرة، هو رب واحد، هو رب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمداً العربى، وأنه تكلم إليه باللغة العربية، ليسحب بذلك الامتياز الذى كان قاصراً حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمى بأنهم خير أمة أخرجت للناس.

الباب الأول

دية بنى عامر

الوقائع من أُحـد إلى الخـندق

غــدر العربــان

«ما أنــا واللــه قتلت خبيبـاً، لكــن أبا ميســرة أخــا بنــى عبد الــدار أخــذ الحربــة فجعلها فى يدى ثم طعنه».

[معاوية بن أبى سفيان]

بينما كانت السرايا والغزوات تضيف باستمرار مزيداً من التراكم المادى والسلاح لدولة النبى اليثربية، فإنها كانت - من جانب آخر - تسهم باستمرار فى ضعضعة الحكومة المكية وسيرها نحو الانهيار، هذا إضافة إلى تعبئة القبائل المجاورة لمكة، والتى أبت - رعبا وخوفا وربما طمعا - إلى حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائعة مختارة كراهية فى قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتى سبق وخلعتها قريش وأقصتها عن مكة إقصاءً، ومن هنا وجدت خزاعة فى محمد وفى يثرب حليفا تحارب من خلاله قريشا، فلعبت دوراً تجسسيا عظيما على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد فى حسم أمور كثيرة لصالح الدولة اليثربية، ومع هذا وذاك، تمت عقود الموادعات بين يثرب وقبائل الساحل التى فضلت الخضوع ليثرب، رغبة فى مغانم قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وتجنبا لحرب يؤْذنون بها من الله ورسوله.

وقد ترافقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة فى يثرب وسيادتها،

بضرب المنازع الأعظم داخل يثرب، اليهود، الشاهد الدينى القدسى الحى، صاحب دستور رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآنى، وهو ما كان من غير الممكن استمراره فى ظل دولة توحيدية موحدة تحكم بدستور واحد وتعبد إلها واحداً وتنتظم تحت إمرة قائد واحد، ومن ثم شكلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبة عظيمة للدولة الطالعة، ساعدت على اتساع سطوتها فى المحيط العربى، حتى جاءت وقعة أحد بضربة موجعة وغير متوقعة على جدول الحسابات، وهو الأمر الذى أدى إلى ترنح هيبتها فى نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك، ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذى طال الرؤوس من القبائل بكاف لإقناع العربان، بالكفاية القمعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التطاول على الدولة اليثربية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمون شعثهم فى خطوات متسارعة وحاسمة، بعقد المعاقل، وتكثيف السرايا المسلحة، للإعلان أن الدولة لم تزل قوية، وأنها وإن انكسرت فى أحد، فإن يراعها لم يزل بإمكانه أن يطول ويضرب ويؤدب لإخضاع القبائل، وبسرعة خرجت سرية أبى سلمة إلى بنى أسد فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة ـ بحسابات الواقدى ـ وبعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبى سلمة قد أبلت بعد، وكان الجرح الذى أصابه فى أحد بعضده لم يزل طازجا، وأمره النبى بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مضارب بنى أسد، وعند وصوله مضاربهم فزع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تاركين نعما كثيرة من الإبل والشياه، غنيمة للمسلمين، وأسر منهم ثلاثة.

ثم يحكى لنا (عمرو بن أبى سلمة) عن أبيه، أنه «لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثة بقين من جمادى الأولى، فاعتدّت أمى حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل بها فى ليال بقين من شوال، فكانت أمى تقول: ما بأس من النكاح فى شوال والدخول فيه»[1]، والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديدة الجمال قوية الشخصية ذربة اللسان فصيحته. ثم تأتى سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبى هريرة قال:

> بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت.. فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم.. حتى لحقوهم.. وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٤.

ألا نقتل رجلا منكم، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم اخبر عنا رسولك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً.. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه..»[٢].

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلا عن الواقدي، لكن ابن كثير لحظ اختلافا بين رواية الواقدي وبين رواية ابن إسحاق، فقال:

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف..

قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة، وقالوا: يارسول الله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم نفراً ستة من أصحابه.. فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز.. غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً.. ثم قاتل حتى قتل، وقتل صاحباه.. أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران، وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.. وذكروا

---

(٢) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانا وتسليما[٣].

والتضارب هنا واضح جلي، في شأن الغرض الذي خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة، فهناك قول: إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيما يبدو ما لم يرتح له الطبري وابن الأثير وابن إسحاق، ربما لوجوب أن تأتي الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذي كثيرا ما ذكرت عنه صحف السير أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها، ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كمينا محبوكا، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلي، بغرض النيل من هيبة الدولة التي اهتزت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكرنا أن العربان لا تترك ثأرها، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها (خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلي)، وهو ما يبرر الحدث ويفسره، فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لتقتل منهم أربعة، وتأسر اثنين تسلمهما لقريش هما خبيب بن عدي وزيد ابن الدثنة.

ويخبرنا ابن هشام أن حجيراً قد ابتاع خبيبا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيداً، وتم قتلهما ثأراً، ويقول ابن هشام: إنهم لم يعجلوا في قتلهما تعظيماً لحرمة الأشهر الحرم، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذي وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيداً عند ثنية التنعيم، وكان قاتله هو معاوية بن أبي سفيان، الذي حاول أن يبرىء نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يقسم «والله ما أنا قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي ثم طعنه»[٤].

لقد استهانت هذيل بالدولة اليثربية، وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبي حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، معبراً عما آل إليه الأمر في يثرب يومذاك ليقول:

إن سرك الغدر صرف لا مزاج له
فأت الرجيع فسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم
فالكلب والقرد والإنسان مثلان

---

(٣) نفسه: ص ٦٦ : ٦٨. انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٧.
(٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٦.

لو ينطق التيس يوما قام يخطبهم
وكان ذا شرف فيهم وشان[٥]

وكالمعتاد فى مثل تلك الأحوال، كان لابد من شيء يبلسم الجراح، ولو بالجنوح إلى الخيال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسي، بأسطورة تأتينا فى شكل خبر يتم تناقله بين كتاب السيرة عن عاصم بن ثابت، الذى ثبت للهذليين حتى قتل رافضا أن يعطى بيديه، وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولديها فى أحد، لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر، لكن هذيلا لا تستطيع أن تأتى برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنوداً تحميه من هذيل، فى شكل زنابير تجمعت على الدم المراق، فلم يقدروا منه على شيء[٦]، ولا يرضى ابن الأثير بحماية الزنابير وينتهى الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول: إن الوادى قد ابتلعه، لأنه كان قد عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك، فمنعه الله فى مماته كما منع فى حياته[٧].

وهو الأمر الذى حدث له نموذج شبيه مع الأسير الثانى خبيب، فهذه ماوية مولاة حجير تحكى بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حبس خبيب بمكة فى بيتى، فطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما فى الأرض يومئذ حبة عنب»، ليردف البيهقى الذى آل على نفسه جمع العجائب، راوياً عن أمية الضمرى الذى حكى لولده وعن ولده الذى حكى لحفيده، أنه تسلل ليلا لإنقاذ خبيب عن الصلب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقته، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا ثم التفت، فكأنما ابتلعته الأرض، فلم يذكر لخبيب رمة حتى الساعة»[٨]. هذا رغم أن رواية ابن كثير توضح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمرى ذاته، الذى أكد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى تنبه له الناس، فأسرع برميه على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلى»[٩].

ثم يأتى يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التى تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفو بعضها بعضاً، عندما

---

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.
(٦) نفسه: ص ٦٥.
(٧) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٨.
(٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٣١.
(٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

تداعى المسلمون فى أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الغليل، فيما رواه أنس بن مالك، ويشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدداً على عدو لهم، معلنين اتباعهم له، فيمدهم النبى بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبى حرام بن ملحان الأنصارى، إلى سيد بنى عامر (عامر بن الطفيل)، الذى ما أن يطالع الرسالة حتى يعمل سيفه وسيوف سليم فى الأربعين مسلما عند بئر معونة، ثم يبقى على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمرى، فقط ليقول له متحديا:

ارجع إلى صاحبك فحدثه، فخرج عمرو

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره.

وحديث بئر معونة بدوره - فى كتبنا الإخبارية - يحمل بعض التضارب، فرغم أن البيهقى بحديث أنس بن مالك قد قال: إن سليم استمدت النبى المدد على عدو لها[١٠]، فإن ابن كثير يروى عن ذات الراوى أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين رجلا لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقتلوهم، فدعا النبى عليهم شهراً فى صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت[١١].

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك.. فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق، ليموت فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين.. فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر

---

(١٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤٢، ٣٤٨.

(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

فأبوا.. فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك، حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم حتى قتلوا عن آخرهم.. وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى.. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم(١٢).

والرواية هنا تلتقى إلى حد كبير برواية عضل والقارة فى أسبابها، وهو الأمر الذى لا يمكن قبوله، حيث يقع المسلمون فى الخطأ ذاته مرتين، ومن غير المعقول أيضا تصور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرسل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التى أخذها الرعب من النبى كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها، كما أنه من غير المستساغ أبداً أن يرسل النبى سبعين رجلا ليعلموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفى شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلا من أن يفقد من رجاله عدداً لم يفقده فى معاركه الكبرى، ثم لا يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بنى عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بنى عامر أيضا هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامرى قبائل أخرى هى قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلى إلا إذا تصورنا مؤامرة قد عقدتها سليم مع بنى عامر، فما كان ممكنا أن يستجيب النبى لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكنا أن يستجيب لبنى عامر، خاصة إذا كان الداعى عامرياً فى كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

كما يجب ألا نذهب مع القول أنه دعاهم ليعلموا العامريين الإسلام فكان يكفى فرد أو اثنان كما قلنا، لذلك يجب قبول الرواية التى تقول أن ملاعب الأسنة قد استمدهم على عدو له، وللتشجيع ـ ربما ـ تم تحديد هذا العدو بعدوة النبى سليم تحديداً، لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتمرير.

ومما يعضد ذلك التفسير المفترض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذى تتحدث عنه كتب السير والأخبار، والذى تم عقده بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين بنى عامر، حيث يستمر ابن كثير فى سرد قصة يوم بئر معونة ليقول: إن عمرو بن أمية الضمرى، الذى أطلقه عامر بن الطفيل ليبلغ رسالته المتحدية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا فى ظل هو فيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما،

---

(١٢) نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر.. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره الخبر، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقد قتلت قتيلين لأدينهما»[١٣].

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجى المعجز، فيقول الإخباريون: «لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمرى، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، قال: لقد رأيته بعدما قتل، رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض»[١٤].

وهكذا تروى المعجزة على لسان من لقبته كتبنا التراثية بعدو الله (عامر بن الطفيل)، ومع ذلك لم يؤمن الرجل رغم ما رأى؟! وبينما (البيهقى) يزيدنا إعجازاً بقوله: إن النبى دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك فى عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يورد سببا آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذى أجار مسلمى بئر معونة قد رأى فى قتل ابن الطفيل لهم تعديا على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت فدمى لعمى»[١٥].

ومع يقظة سليم وتحفز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيرسل النبى يستدعى عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم بن حريش، ليوجههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «اخرجا حتى تاتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غرة فاقتلاه». ويحكى ابن الضمرى فيقول: فأتينا مكة فطفنا أسبوعا وصلينا ركعتين فلما خرجت لقينى معاوية بن أبى سفيان فعرفنى[١٦]، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية.. فقاموا فى طلبى وطلب صاحبى، فقلت له النجاء، هذا والله الذى كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصعدنا فى الجبل، فدخلنا فى غار فبتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هرباً، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار..»[١٧].

ويتمكن ابن الضمرى من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غاراً يبيت فيه ويحكى: «فبينما أنا فيه إذ دخل علىّ رجل من بنى الديل بن بكر، أعور، طويل، يسوق غنما له،

(١٣) نفسه: ص ٧٥.
(١٤) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.
(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.
(١٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.
(١٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

فقال: من الرجل؟ فقلت رجل من بني بكر، قال: وأنا من بني بكر،.. ثم اضطجع معي فيه. فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم مادمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: «سوف نعلم، فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحدُ أحداً، قمت إليه فجعلت سية قوسي في عينه الصحيحة ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه»[18]. ويتابع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت في الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. وقد ربطت إبهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي يضحك، ثم دعا لي بخير»[19].

ومع فشل بعثة ابن الضمري لقتل سيد مكة، كان لابد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التي باتت ساهرة الأجفان تتوقع الثأر الآتي لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة بقيادة النبي نفسه، لكن لتهرب سليم جميعا ويتركوا منازلهم وأنعامهم فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودوا بها إلى يثرب فيما عرف بغزوة (قرقرة الكدر)[20].

وكان من غير الممكن الاستمرار طويلا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تعيد للدولة هيبتها، وتعيد العربان إلى سابق انكماشهم، ومن ثم كان لابد من تحديد هدف كبير، ولإيجاد سبب مناسب يكون مدخلا إلى ضربة كبرى تعيد إلى المسلمين ثقتهم في أنفسهم، وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا.

---

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

(٢٠) الحلبي: سيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

غزوة النضير

«اخرجوا من بلدى فلا تساكنوننى بها.. وقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه».

[رسالة النبى إلى بنى النضير]

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والملتبس بكتبنا الإخبارية، والذى عُقد بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين بنى عامر، ورغم المكيدة التى راح ضحيتها ما بين الخمسين والسبعين من خيار المسلمين فى بئر معونة، والتى دبرت بشكل غير واضح فى مأثورنا، وقاد المذبحة الزعيم العامرى (عامر بن الطفيل)، فإن أمية الضمرى عندما قتل عامريين فى طريق عودته، وجد النبى غير راض عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية فى العامريين القتيلين، لأن بينهما عهداً، وهو العهد الذى لم يعلم به الصحابة، وهو ما يوضحه عدم علم ابن الضمرى الذى قتل العامريين.

والأكثر التباسا أن يقول الطبرى: «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد فابعث بديتهما»[٢١].

الأمر هنا غير مقبول إطلاقا، فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمعاونة قبائل سليم

(٢١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

سبعين مسلما، ثم يرسل للنبى طالبا الدية لعامريين قتلهما الضمرى ثأراً، ويصبح موقف النبى - صلى الله عليه وسلم - غير مفهوم فى إصراره ليس على الانتقام وإنما فى أداء الدية لبنى عامر!! كما حدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان انتقاما لسبعة فقط من رجاله فى مؤامرة مثيلة، وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح فى الإصرار على دفع الدية للمعتدى، كان إيجاداً لسبب لما هو أعظم وأجل، ألا وهو إجلاء بنى النضير، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب، وخاصة أن النضير كانوا حلفاء الأوس، وكان المنافقون من الأوس كثر، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد. خاصة أن كتب الأخبار التى أفاضت فى أمر دية بنى عامر، قد توقفت تماما عن ذكرها بعد غزوة النضير، حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلا أم لا؟ كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بنى عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير، لتطهير يثرب، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء، ثم - من جانب آخر - تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تعوضهم عن هزيمة أحد.

ويتضح دور دية بنى عامر والإصرار عليه فيما أدت إليه من نتائج باهرة، توضحها رواية الطبرى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما ذهب إلى بنى النضير، يستعين بهم فى أداء دية العامريين، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالف فى صحيفة المعاقل، فتقول الرواية:

> فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قباء، ثم مال إلى بنى النضير مستعينا بهم فى ديتهما، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير،.. فلما أتاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستعينهم فى دية ذلك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه[٢٢].

إن أى قارىء كان لابد أن يتوقع من بنى النضير تسويفا أو مماطلة أو رفضا، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدروا الأمر تقديراً عميقا، فمازال خروج يهود قينقاع المهين ماثلا فى الأذهان، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من السلام لا يرجون غيره، مع مسلسل الاغتيالات الذى نال رجالهم المقدمين، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا مقتدرين ماليا على أداء مثل تلك الديات بعدما حصلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى، ومن ثم كانت الحكمة تقتضى إجابة مثالية واضحة، لا تعطى أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمض عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، رغم ما فى ذلك من نكاية بعهدهم مع بنى عامر وحلفهم معهم، وهو ما يعلمنا به ابن إسحاق، الذى أكد أن النضير

---

(٢٢) الموضع نفسه.

مثلما كانت قبل الهجرة على حلف تآخٍ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بنى عامر[٢٣] ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكوا حلفهم مع العامريين.

ويتابع الطبرى روايته فيقول: إن يهود النضير عندما أجابوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما طلب:

> قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انتهوا إليه.. فقالوا: يارسول الله، انتظرناك ومضيت، فقال: يهود همت بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل[٢٤].

أما كيف همت نضير بقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبى وحده بتلك المؤامرة، فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائداً إلى المدينة»[٢٥]، وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعداً، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه»[٢٦].

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بنى نضير الواضحة، وهو الجلاء عن يثرب، وزيادة فى النكاية بهم أرسل النبى لهم واحداً من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنذر وتقول بلا لبس:

> اخرجوا من بلدى فلا تساكِنوننى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئى بعد ذلك، ضربت عنقه[٢٧].

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هى، لكن ها هى الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مغادرتها فوراً وخلال أيام

---

(٢٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.

(٢٦) الموضع نفسه.

(٢٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.

عشرة، أو يكونوا فى خسر، تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقى: أن النضير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسى يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يعد رسالة أخرى من النبى لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعقدها قائلة لابن مسلمة: «يامحمد» ماكنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب[٢٨]، أو بنص الطبرى «تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود»[٢٩].

وهنا يعلمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل لهم يقول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان»، ومن ثم كانت إجابة زعيم النضير، الذى لقبته العرب سيد الحاضر والبادى، حيى بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»[٣٠].

وهو أيضا ما أكده ابن كثير وهو يروى «فبعث لهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حيى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود»[٣١].

وهنا تسترسل آيات الوحى تنذر وتتوعد وتقول:

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ (١١، ١٢/ الحشر).

وكان الإنذار واضحا لا يحمل أى لبس، وهو ما كان كفيلا بتراجع المنافقين وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنضير أى تحرك من جانب الأوس، ولا من جانب ابن سلول وأشياعه، أما قريظة فقد فهمت الرسالة، ومن ثم التزمت صحيفة المعاقل وهو ما يقوله ابن سعد فى تقريره:

---

(٢٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٦٠.
(٢٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.
(٣١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

واعتزلتهم **قريظة فلم تعنهم**، وخذلهم ابن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم[٣٢].

أما الطبرى فقد أفصح عن موقف قريظة فى إعلان زعيمها كعب بن أسد:

لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حى[٣٣].

ويحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حيى بن أخطب: «يا حيى اقبل هذا الذى قال محمد، وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: وما هو شر منه؟ قال: أخذ الأموال، وسبى الذرية، وقتل المقاتلة، فأبى حيى، وأرسل حيى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك، **فكبر رسول الله** - صلى الله عليه وسلم - **وكبر المسلمون معه وقال**: **حاربت يهود**» ؟![٣٤].

ويقول ابن كثير أن النضير لما «نابذوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.. فحاصرهم ست ليال..»[٣٥]، لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبى بهدم مساكنهم المنتشرة حول حصونهم، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

يامحمد؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال تقطيع النخل وتحريقها؟![٣٦]

ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟[٣٧].

وقال الحلبى فى سيرته:

لما قطعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل. وعند ذلك نادوه.. يا أبا القاسم.. ما هذا الفساد؟.. يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ **وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض**؟ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون؟![٣٨].

---

(٣٢) الموضع نفسه.
(٣٣) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٣.
(٣٤) الموضع نفسه.
(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.
(٣٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٨٢.
(٣٨) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤.

قال السهيلى فى شروحه:

فوقع فى نفوس المسلمين شىء من هذا الكلام[٣٩].

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادىء توجه إليها الانتقادات والملامات، أو أفكار تعاب، فالمعركة يجب أن تحسم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التى قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم، وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبى وصحبه، يؤكد ألا ملامة فى قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآى الكريم ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين﴾ (٥/ الحشر).

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوما، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»[٤٠]. ولهم ما حملت الإبل، ووافق النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - لكن حتى لا تحمل الإبل متاعا، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيراً واحداً يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفى ذلك يقول الحلبى «كان نخل بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، **أعطاه الله تعالى إياه**.. وأكثر الروايات، أن أموال بنى النضير أى مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، حق لرسول الله خاصة له.. حبساً لنوائبه، وكان ينفق على أهله منها، وكانت صدقاته منها»[٤١]. وفى الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن أموال بنى النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالصة»[٤٢]. وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبذلوا فى سبيله ولم يحاربوا من أجله، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى النضير، لذلك فهو من حق النبى وحده، حين تقول الآيات ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ (٦/ الحشر)، أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تؤكد الآيات ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير﴾ (٦/ الحشر).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مهانة، يقودها حُيى بن أخطب الذى عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقبته سيد الحاضر والبادى، واتخذ المرتحلون طريق الشمال، لكن لينزل

---

(٣٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤٠) نفسه: ص ٥٥٣.

(٤١) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

(٤٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الحشر، ومسلم فى ٣٢ من كتاب المغازى ١٥، باب حكم الفىء، الحديث ٤.

بعض سادة النضير على يهود خيبر مثل سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب مع جمهور من يهود النضير، بينما يستمر باقى الركب يقطع الفيافى باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك فى فلسطين.

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيافى الجزيرة ويسرى مع الرياح يسمع مضارب القبائل فى كل مكان، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

﴿سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ (١:٤/ الحشر).

تأديب العربان

«فأبلــغ أبا ســفيان عنــى رســالة
فإنــك مــن غــر الرجــال الصــعالك» .

[حسان بن ثابت]

كان خروج النضير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المزرى، وانهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التى كانت فى نظر العرب معاقل كبرى، عاملا عظيم الأثر فى بث الرعب فى قلوب العربان الذين لا يملكون حصونا ولا صياصى. ورجعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين، فكانت حكاية العربان الراجفة المزلزلة، عن تلك القبيلة التى استقرت فى يثرب قرونا، وكونت لنفسها بين العرب جليل المكانة، ليطيح بها السيف المحمدى خارج حدود جزيرة العرب جميعا، وكان طبيعيا أن ترجف هذيل وتسفى رياح الحدث بأعصاب رجالها وتشتت أمنهم، فثأر أصحاب الرجيع لم يزل قائما، وكان تأديب فخذها اللحيانى أمراً آتياً لا محالة، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعت درس أصحاب (بئر معونة)، الذين هربوا ما أن حذروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفروا فراراً غير كريم، ومن ثم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار، بينما كان النبى يلج برجاله عليهم، لكن ليسلك طريقا غير الطريق المضروب لدار لحيان، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة، فسلك برجاله طريقا طويلا وعثا وعراً نحو الشام، حتى يرى العرب أنه يريد أمراً بعيداً، لكن ليلتف بجيشه التفافة كبرى لم تغب عن عيون لحيان المرعوبة، فتركت له

الديار ليصلها فيجدها فراغا، وأصحابها قد صعدوا رؤوس الجبال وتمنعوا بوعورة بيئتهم، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم فى مواضع الأمان، وهنا اتخذ القائد خطا آخر ليستدير على مواضعهم المنيعة من طريق عسفان، ذلك الطريق شديد الوعورة قرب مكة، مما كبد النبى وجيشه مشقة ووعثاء شديدتين. لكن مكة ظنته قادما إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مواجهته تحتمل هزيمة يقينية، مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبده جيش المسلمين من مشاق، مع الانسحاب الهادىء والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده، بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أى مغنم وبدون تحقيق أى هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما ردده النبى العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشىء:

أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر فى الأهل والمال(٤٣).

ولم تنقض أيام بيثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التى كانت حليفا للنضير، والتى وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة، ومن ثم كان من الضرورى إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هى الغزوة المعروفة (بذات الرقاع)، التى أراد بها النبى بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعداداً عسكريا متميزاً لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ويروا أمامهم جيشا مستعداً متجهزاً. ليروى لنا الطبرى ما حدث فى قوله: «الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضا، حتى صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمسلمين صلاة الخوف ثم انصرف بالمسلمين»(٤٤).

ومع الحملات الفاشلة على التوالى، كان لابد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففى غزوة ذات الرقاع، يروى لنا الإمام النويرى رواية عجيبة تقول «وفى هذه الغزوة جاءته ـ أى إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه وقال: اخسأ عدو الله، أنا رسول الله، ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: شأنك بابنك، لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه، فكان ذلك»(٤٥).

---

(٤٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٤٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٦.

(٤٥) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧٦.

وفى تلك الغزوة التى لم تحقق شيئا، نجد حديثا آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات، حيث لا ملائكة، ولا دور عسكرى يقوم به جبريل، فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل، فنفدت ميرتهم من الطعام، فعثروا على ثلاث بيضات نعام، فقال النبى للصحابى جابر: «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات، قال جابر: فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة، فجعلنا نطلب خبزا فما نجد، فجعل النبى وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته، أى إلى الشبع، والبيض فى القصعة كما هو»[٤٦].

ويبدو أن تلك الغزوة التى خاف فيها النبى والمسلمون القتال، حتى صلوا صلاة الخوف، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات، لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء، وهى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية، فطرد الشيطان من الأجساد، وإطعام الجمع الغفير فى القفر بالقليل من الطعام، معجزات معلومة للمسيح، فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية، كما أطعم جمعا غفيراً برغيف وسمكتين بعد أن باركها، وبقيت فضلات تملأ أجولة، ثم تأتى هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية، يتحول فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قدرة التحادث مع الحيوانات، وهو ما ورد فى قصة البعير الذى جاء وحدث النبى بشكواه فأنصفه[٤٧].

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة، حيث كان أبوسفيان قد تنادى بالمسلمين المختبئين فوق الصخرة فى غزوة أحد قائلا: يوما بيوم بدر، وإن بدراً موعدنا العام المقبل، وقد حان موعد اللقاء المضروب، بمرور عام كامل على وقعة أحد.

ويحكى لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزله، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبى بن سلول.. فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان[٤٨]، لكن أبا سفيان لم يأت لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مستعدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مسلحين بالعتاد وبالتجارة، متجهزين لكلا الأمرين، ولما كانت بدر سوقا للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمرى إلى النبى، وكان قد كتب عهد موادعة مع النبى عندما غزاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة ودان، ليسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

يامحمد؛ أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟

---

(٤٦) نفسه: ص ٥٧٧.

(٤٧) نفسه: ص ٥٧٨.

(٤٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨.

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر فى حمى بنى ضمرة، لا يريدون عليه حربا، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجارى، لكن ليجيبه النبى بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

لكن ليجيبه الرجل من فوره:

لا والله يامحمد، مالنا بذلك من حاجة!![٤٩].

ويخبرنا الواقدى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد خرج إلى بدر الآخرة فى ألف وخمسمائة من الجند المسلحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم وهى ثمانية أيام، والسوق قائمة، والمسلمون يتاجرون وهم يحملون السلاح، فكان لا ينازعهم فى السوق منازع، فربحوا عن الدرهم درهمين[٥٠] ليعقب الوحى الكريم على الحدث بقوله:

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (١٧٤/آل عمران).

وهكذا أسفر أمر بدر الآخرة عن إعلان لجميع العربان بجبن أهل الله المكيين عن الخروج لملاقاة جند الله اليثربيين، جبنت قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعراب، وزيادة فى تمريغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية - يرددها العربان - لأبى سفيان، تعيره هو وقريش وتقول:

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد	لميعاده صدقا وما كان وافيا
فاقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	عمرا أبا جهل تركناه ثاويا

أما حسان بن ثابت الذى يجبن عند الحرب، ويرسل لسانه سليطا عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة	فإنك من غر الرجال الصعالك[٥١]

وهو الأمر الذى آذى قريشا، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبى سفيان لائما يقول: «قد والله

(٤٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٩.
(٥٠) نفسه: ص ٩١، انظر أيضاً الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٠.
(٥١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٩.

نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف»[٥٢].

هذا ما كان عليه حال قريش، أما حال يثرب فلم يكن مرضيا لأهلها، فالحملات تفشل، والعريان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تعلن دوما عن حجم القوة الإسلامية، وهنا يحكى لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبى أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيفزع قيصر الروم فزعا شديداً، وكان الخبر هاما، فليس هناك رسالة للعريان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته.

وإعمالا للخبر، «ندب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس، فخرجوا فى ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بنى عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بساحتهم، فلم يجد فيها أحداً، فأقام فيها أياما، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلا منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس»[٥٣].

هكذا وصلت أخبار الجيش المحمدى، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث فى باطن الجزيرة، لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم، وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبى بعد عودته إلى يثرب، فهى أن «أرسل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب»[٥٤].

وفى طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبى أن يمر بمضارب فزارة وهو فى استعداده العسكرى هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزارى سيد فزارة، سوى موادعة سيد يثرب، وكانت موادعة عيينة مكسبا لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتى من المحاربين عند الحاجة، ومن هنا منحه النبى عهداً يرعى بموجبه سوائمه فى تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجدبت أراضى عيينة، ومر المسلمون بسلام عائدين إلى المدينة[٥٥]. ولم تمض أسابيع حتى كان عيينه يعدو على سوائم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقتل رعاته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

هذا بينما كانت قريش فى أمر آخر، تحسب حساباتها، وتراجع أمر تجارتها، وما شاع بين العريان عن جبنها.

---

(٥٢) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٥٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٣، انظر أيضاً البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(٥٥) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤، انظر أيضاً الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.

غــزوة الخــندق

«كـان مـحـمـد يعدنـا أن نـأكل كنـوز كسـرى وقيصـر، وأحـدنا اليـوم لايأمـن على نفسـه أن يذهب إلى الغائـط».

[معتب بن قشير الأنصارى]

خطوات سريعة، تلك التى اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجل تطهير المدينة وخلاصها للمسلمين، تم بها تصفية كثير من المعارضين من المنافقين والمشركين واليهود، وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعاقل - فيما ذهبنا إليه من اجتهاد افتراضى - لكن النبى كان يعلم يقينا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخى، وسلسلة من النبوات قفت بعضها بعضا، يعنى وجود منكر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفى عقر دار دولته الصغيرة، ومن ثم كانت تلك الخطوات المتسارعة لتطهير يثرب، بطرد بنى النضير، وسيدهم حيى بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذى ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليدرك ثأره من محمد.

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبى، قد أرهقت قريشا وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التى ألقت نتائجها موادعات وتحالفات للقبائل الضارية على الطريق

التجارى، مع محمد ورجاله، مما قطع إيلافهم مع قريش، ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقاة محمد على ماء بدر فى بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشى، كان صاحب الموعد التهديدى فى أحد، ومن ثم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة فى يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا أسفرت دية بنى عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضا أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها المتحمسين فى الدين، المعظمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمداً قد خرق تلك التحريمات فجازت عليه الحرب، ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشاوس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وتروا فى زعامتهم المغدورة، ولم ينس الغطفانيون من بنى فزارة، مقتلة عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التى مزقها زيد بن حارثة فى غزوة مفاجئة أخذتهم على غرة. لكن غطفان لم تكن ذات مصلحة مباشرة مادية فى تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك، فقد تعاقدوا مع الطماع الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزارى على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خيبر لمدة عام كامل، فوافق من فوره[٥٦].

وتحرك الجيش العظيم، الذى يربو على عشرة آلاف من المقاتلين الأشداء، بين فيافى الحجاز ميمما شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش، لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية، وهو الأمر الذى بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرار من المحاربين.. ووقع فى أيدى المسلمين!!

ويوجز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب فى قوله:

> كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس.. كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من النضير ونفر من بنى وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ

---

(٥٦) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج ١، ص ٣٤٣.

صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى فزارة، والحارث بن عوف .. فى بنى مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع(٥٧) .

ويستكمل الطبرى:

فلما سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضرب الخندق حول المدينة .. وكان الذى أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخندق سلمان الفارسى، وقال: يارسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا(٥٨) .

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلا، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسى واستحسنه، ووجد فيه خلاصا مفاجئا، وفكرة لماعة لإيقاف الهدير الآتى، ومن ثم كانت مكافأة صاحب الفكرة المنفذة فى قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -: «سلمان منا آل البيت»، حيث جاء الخندق ليكون إنقاذا حقيقيا لموقف ميئوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبى بن سلول، التى كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله، ومن ثم كان الخندق إنقاذاً للموقف على عدة مستويات:

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تنهى دولة الرسول فى يثرب وتسقطها، اعتمادا على حشده لقوى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث فى البرد القارس، وهو ما كان كفيلا بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المتحالفين، وبذلك أفقد الخندق المهاجمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددى.

ثانيا: كان الخندق تأمينا عسكريا لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان

---

(٥٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى .. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٨، ٢٥٩ .

(٥٨) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦ .

لمن هم فى داخل يثرب، لديهم الغذاء والميرة، بينما يترك المهاجمين فى العراء مع ما جمعوا من ميرة ـ مهما كان حجمها ـ فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثا: أن الخندق قدم حلا مثاليا لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبدالهادى عبدالرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذى جعل من لم يسلموا بعد، والمنافقين فى محنة كبرى، ففي العراء يمكن للمنافقين ألا يحاربوا، بل أن يجدوا فرصة وغرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل، أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعني أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقى، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعنى أيضا أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغبا أم غير راغب فى جيش الدفاع عن بلده، وسواء، كان مسلما أم لا. لقد حول الخندق أمر المدينة إلى وطن، وأجج الشعور الوطنى، فلكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يدافع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزوا لوطن ودفاعا وطنيا، ومن ثم سيحارب الرجال والبيوت وسيحارب الشجر والحجر، وستحارب النساء بل وربما الأطفال، سيحارب المشرك والمنافق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحول المدينة جميعا إلى رجل واحد، وحول معادلة الثلاثة آلاف جندى إزاء العشرة آلاف إلى معادلة أخرى، إلى شعب يدافع عن وطنه ضد غزاة، شعب تكتل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائمها، إزاء جيش وإن كان عظيما فهو يفترش العراء، بعيداً عن دياره، يأكل ميرته لتنقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضا بتضارب المصالح بينهم، إنه الأمر الذى لا محالة يستدعى الآن وبقوة نصيحة عبد الله بن أبى بن سلول وهو يقول للنبى فى أحد:

> يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا(٥٩).

وهكذا؛ ما إن بلغ سيد المدينة ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر مسير يهود بين العرب لتحزيبهم حتى ضرب الخندق الفارسى، لأول مرة فى جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبى، الرسول،

---

(٥٩) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٩.

القائد، فى مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجاً بين رجاله، يحمل أتربة الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفا بكتف ويداً بيد.

ولم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبى، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأتربة، وهو ما قررته كتبنا الإخبارية وهى تمر على الخبر سريعة دون توقف، فى برقية موجزة مقتضبة تقول: «واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة، ومساحى وكرازين ومكاتل»(٦٠).

ونستمع هنيهة للصحابى البراء وهو يروى نتفا من أيام حفر الخندق فيقول:

لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عنى التراب جلد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا، ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها.. أبينا، أبينا»(٦١).

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

ولما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومة، بين الجرف وذى غابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذى نقمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم.. حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا:

---

(٦٠) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٣٢.
(٦١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٨.

والله؛ إن هذه لمكيدة

ما كانت لتكيدها العرب[٦٢].

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكرى جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع فى أيديها، ومن ثم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستفز فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلا فيما كتب:

باسمك اللهم؛

فإنى أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتانى كتابك، وقديما غرك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا؟

فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أُذكّرك ذلك ياسفيه بنى غالب[٦٣].

معجزات الخندق:

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هى أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التى تمكنت

---

(٦٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، ٢٦٣.

(٦٣) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٥٧.

يثرب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مقاتل يحاصرون مدينتهم، وليس هناك خبر عن إمداد سماوي، ولم يأت جبريل وجنده، ومن ثم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عبر ووعود، وهى التفاصيل التى يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجي والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التى تقول:

حُدثت عن سلمان الفارسي: أنه قال: ضربت فى ناحية من الخندق، فغلظت علىّ صخرة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريب منى، فلما رآنى أضرب، ورأى شدة المكان علىّ، نزل فأخذ المعول من يدى، فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قلت:

بأبى أنت وأمى يارسول الله، ما هذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله قد فتح علىّ بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة، فإن الله فتح علىّ بها المشرق(٦٤).

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعى تماما، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدى فتقدح شرراً، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة، فى وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم فى أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذى تكتل فيه العرب كتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأنة النفوس الجازعة. فالدلالة فيه أن كل ذلك الذى يحدث زوبعة طارئة منتهية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعاً ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعا، ولكن ذلك الحديث الذى قصد منه النبى بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقفته مع ذلك البرق اللامع روايات تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير، وتتحول آمال النبوة المقبلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشرر ليصبح ضوءاً مبهراً معلنا وجود قدرات كبرى إلى جوار النبى ورجاله، حيث يروى النسائى ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

---

(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسى قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم، فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم، فندر الثلث الباقى، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يارسول الله رأيتك حين ضربت، لا تضرب ضربة إلا معها برقة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأيت ذلك ياسلمان؟ قال: أى والذى بعثك بالحق، قال: فإنى حين ضربت الضربة الأولى، رفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا بذلك.

قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا.

ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعينى، ثم قال رسول الله: دعوا الحبشة ماوادعوكم، واتركوا الترك ماتركوكم[٦٥].

ولا ينتهى حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث - التى رآها سلمان، لأنه كان بجوار النبى - صلى الله عليه وسلم - والتى استدعت دهشة النبى وهو يسأل سلمان: أو قد رأيت ذلك ياسلمان؟ - تتحول إلى برق إعجازى أسطورى يسجل آية عظمى، فيدونها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبى الجسدية الهائلة التى صدعت الصخرة فيقول:

فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة فكبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الأولى، وأخبرنى جبرائيل أن

(٦٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٣.

أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء. وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها(٦٦).

أما البيهقى، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة، وجامع تلك الدلائل التى رآها جميعاً إعجازية، فقد وجد فى قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليكرر، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها (أى لابتى يثرب)، حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيرة فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون.

فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب، فخرج البرق كالموج، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئا غير ذلك، فقال: صدقتم، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم، أضاء لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل - عليه السلام - أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا.

---

(٦٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

ويعقب البيهقى تعقيباً واضح المدلول بقوله: إن الرسول أراد بذلك أن «يبلغهم النصر»(٦٧).

وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخباراً عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

> وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة فى تصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، فكان مما بلغنى، أن جابر بن عبد الله كان يحدث: أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذى بعثه بالحق نبيا، لانهالت حتى عادت كالكثيب(٦٨).

وإذا كانت خاتمة حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البيهقى: فأبشروا، مع الإلحاق التوضيحى: «يبلغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويصبح ذلك النصر سهلا وبسيطا هين الشأن إذا قورن بما بيتته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا، فإن هناك من الصحابة من كان له رأى آخر، إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفزع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخراً يقول برواية ابن الأثير:

> ألا تعجبون؟!
>
> يعدكم الباطل!!
>
> ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟!(٦٩).

أو برواية ابن هشام:

> كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟!(٧٠).

---

(٦٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤١٩.
(٦٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.
(٦٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.
(٧٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

ولهذا السبب، ولتلك القولة التى كانت تعبر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العربى التى لا تعرف التزويق، وباندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير فى طائفة المنافقين، لكن ليلاحظ ابن هشام أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقا، لأنه كان من مقاتلى النصر البدرى الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وأصبحوا جميعا من أهل الجنة، وفى ذلك يقول: «وأخبرنى من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر»[٧١]، ورغم ذلك، فقد جاء الوحى يرد على ابن قشير قائلا: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ (١٢/ الأحزاب).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالاتنا حديث الأحاجى ليستمرئوا الاستمرار فيه، فيروى ابن إسحاق:

> وحدثنى سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتنى أم عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما.
>
> قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يابنية؛ ما هذا معك؟ قالت: قلت: يارسول الله هذا تمر بعثتنى أمى به إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة، يتغذيانه، فأمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[٧٢].

ومع الجوع إبان العمل الدءوب الذى يسابق الزمن قبل وصول قريش، تتتالى أحاديث الطعام المبارك، فى معجزات تتتالى شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله قال:

> عملنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الخندق، فكانت عندى

---

٧١) الموضع نفسه.
٧٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٠.

شويهة غير جد سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أمسينا وأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يارسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده.

فلما أن قلت ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت جابر بن عبد الله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبارك وسمى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها(٧٣).

وذات الرواية تروى عن جابر أيضا، لتفسر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفى ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم، فتقول:

وجئت امرأتى فقالت: بك وبك.. فأخرجت لنا عجينا فبسق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك، ثم قال: ادع خبازة فلتخبز معك، واقدحى من برمـتك، ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا كما هو(٧٤).

ورغم كل الأحاجى وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحا، كما جاء فى رواية ابن كثير التى شرحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مباركات، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل فى ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيظى الذى جاء للنبى يتحدث نيابة عن قومه: يارسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، بينما طائفة أخرى تهبط المعنويات وتثبط الهمم وتقول للناس: ياأهل يثرب لا مقام لكم هنا فارجعوا، بينما يسترسل الوحى معقبا على تلك المواقف المتخاذلة ليقول:

---

(٧٣) الموضع نفسه.

(٧٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٠.

﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾ (١٣/ الأحزاب)

وهو ما يؤكده تقرير الطبرى عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول»(٧٥).

قريظة تنقض العهد:

وحفر أكبر خندق عرفته الجزيرة، ويمتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع محاولات يائسة لعبوره من قبل المهاجمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع، مما أدخل الطمأنينة بعض الشىء فى النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبق غير الانتظار لنفاد ميرة المهاجمين، ومجالدة كل من يحاول اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق، وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير، فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحى والمكاتل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة، وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوطا، فقد أحاط الخندق بالمدينة تماما، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، وكان بذاته مانعا طبيعيا قويا، يكفيه بعض الرماة ليصبح حصنا منيعا لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوى المتين على حافة المدينة وبمواجهة الأحزاب، يطل عليهم مباشرة، وهنا كانت نقطة الضعف التى كان يدركها جميع الأطراف: المسلمون، وقريظة، والأحزاب، فكان يكفى أن تفتح أبواب حصن قريظة، ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهى الأمر فوراً، وقد وعى المهاجمون ذلك وقرروا اللعب عليه، فتحرك محزب الأحزاب (حيى بن أخطب) زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالبا لقاء زعيم قريظة (كعب بن أسد). وتدون هنا أقلام كتاب السير والأخبار قصة ما حدث فى ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخرج عدو الله حيى بن أخطب حتى أتى كعب ابن أسد القرظى، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيى بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه ورد عليه فى الحوار التالى، كما أوردته كتبنا الإخبارية:

---

(٧٥) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

حيي: ياكعب افتح لى.

كعب: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشئوم، إنى عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا.

حيي: ويحك، افتح لى أكلمك.

كعب: ما أنا بفاعل.

حيي: والله إن أغلقت دونى إلا جشيشتك أن آكل معك منها.

وهنا، وحيي يستفز كعب، يعيره بمسبة كبرى فى العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل وإغلاق الباب دون جائع، يفتح له كعب باب الحصن ليغلق خلفه سريعا، ويستمر الحوار:

حيي: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

كعب: جئتنى والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شيء. ويحك، دعنى ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

وتستمر كتبنا الإخبارية فى الرواية لتقول: «فلم يزل حيى بكعب، يفتله فى الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ»[٧٦].

وهكذا تقرر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتى كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو تفكير قريظة، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام، تم فيها علاج الموقف، المتأزم من جانب النبى، قبل أن تسقط قريظة فعلا فى خيانة واضحة.

وبلغ النبى بما له من عيون بما يحدث فى حصون بنى قريظة، وبلغ الأمر كذلك المسلمين المجهدين المكدودين الفزعين، وأخذ بهم الخوف والرعب، فطلب النبى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا

---

(٧٦) نفسه: ص ٥٧١. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، انظر أيضاً ابن الأثير.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٠.

حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله فى التداعى «فإن كان حقا، فالحنوا لى لحنا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس»(٧٧).

ووصل الوفد حصن قريظة «ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت بإير أبيك»(٧٨).

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدى، كان رده تحديا بجارح الألفاظ وقبيح الشتائم، وهو يصوره ابن هشام بقوله: «إن رجال وفد النبى خرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلموا عليه وقالوا: عضل والقارة (الرجيع)، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه».

وفهم النبى اللحن والرمز الهامس، وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شىء إطلاقا يستدعى كل ذلك الفزع، وأن كل شىء على ما يرام، وهو ما تمثل فى صيحته التهليلية «الله أكبر، أبشروا يامعشر المسلمين»(٧٩).

وتأزمت الأزمة فعلا، وكان لابد من تحرك سريع وحاسم، قبل أن تقدم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبنى جلدتها نضير وقينقاع، حيث تفيد مصادر أخرى أنهم اشترطوا على السعدين لمواصلة الالتزام بالصحيفة، والاستمرار فى المدد، إعادة بنى النضير للمدينة(٨٠). ومن ثم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبر، لتصل إلى نتيجة مفادها: أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هى حصن قريظة، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هى غطفان الفزارية، أتباع الأحمق المطاع الطماع عيينة بن حصن، فهم ليسوا أبداً أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية فى القضاء على محمد، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة، والحصول على المغانم، وهو ما يمكن علاجه بالمغريات المالية.

---

(٧٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.
(٧٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٠٣.
(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ٢٦١.
(٨٠) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٥٠٠.

وعند هذه اللحظة من التفكير المتأنى أرسل النبى سراً إلى قائدى غطفان: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، يفاوضهما على الانسحاب من الأحزاب مقابل ثلث ثمار المدينة، وجرت المساومات السرية أخذاً ورداً، اشترط معها عيينة النهم نصف تلك الثمار، لكن ليشترط عليه النبى فى مقابل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة(٨١).

وقام النبى يخبر السعدين بما اتفق عليه مع غطفان، فيحتج السعدان ويقولان: «إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف»، ليرد النبى على سعد بن معاذ «فأنت وذاك»، فيتناول ابن معاذ الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهد اتفاقى ويقول: «ليجهدوا علينا»(٨٢)، بينما يأتى من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعى لبرى النبى ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب، فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

خذل عنا إن استطعت، **فإن الحرب خدعة**(٨٣).

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ فى التنفيذ، ويدرك أن الأمر الآن أمر عسكرية وخدع، فالعبرة بالنهايات والخواتيم، وليست العبرة بقواعد قد تؤدى إلى دمار، وعليه يروى ابن هشام كيف تمت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود، فيقول:

> ثم إن نعيم بن مسعود.. بن غطفان، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:.. إن قومى لم يعلموا بإسلامى(٨٤)، فمرنى بما شئت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخذل عنا إن استطعت فالحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة،.. فقال: يابنى قريظة.. إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا

---

(٨١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٢، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

(٨٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص ٢٦٥.

(٨٤) لم ير كتّاب السير فى فعل نعيم بن مسعود إلا إسلاماً، دون أن يقفوا مع اتفاق غطفان مع النبى.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم، ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

وخرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش.. إنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

وأخذت الريبة برؤوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمر توتراً قدوم تلك الليالى الشاتية القارسة على رجالهم فى العراء، مع النفاد المتزايد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام:

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس.. أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة.. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كى نناجز محمداً.. فأرسلوا إليهم: إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا.. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا لبنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم..

وخذل الله بينهم..

وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.. ثم قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.. أخلفتنا قريظة.. ولقينا من شدة الريح ما ترون.. فارتحلوا فإنى مرتحل.. فانشمروا راجعين إلى بلادهم[٨٥].

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دبرت، ومن دبرها، للإيقاع بين الأحزاب وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق: «وخذل الله بينهم». وحتى يتضح ذلك التدخل الإلهى، الذى يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، فى أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد القول عند ابن قتيبة:

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة رسول الله، عن عكرمة قال: لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال: انطلقى نمد رسول الله - صلى الله غليه وسلم - فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل، فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا[٨٦].

وهو الأمر الذى جاء تأكيده وحيا يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ (٩/ الأحزاب).

وهى الجنود الملائكية التى لم تحارب أبداً فى الخندق، وهو ما جاء مشروحا عن مجاهد: «وجنود لم تروها يعنى الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ»[٨٧] وهو ما يعنى أن الملائكة كانت وراء تلك الريح الصرصر العاتية، وأنها أخذت تعبث بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم وتطفىء نارهم.

وهكذا يعود ابن هشام من قوله: «وخذل الله بينهم» إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من

---

(٨٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٦.
(٨٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ٢، ج ١، ص ٢١١.
(٨٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٤٨.

أساليب الخداع الإنساني، فيتابع القول: «وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم»، مصوراً فعل الطبيعة قاصراً فقط على الأحزاب، لكن بعد سنوات من الخندق، نجد الصحابي أبا حذيفة يحكي لجلسائه مشاهده القتالية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له جلساؤه: والله لو كنا شهدنا ذلك، لكنا فعلنا وفعلنا، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام، بعيدا عن واقع الفعل، ليحكي لهم عن تلك الليالي الشاتية قوله:

> لا تمنوا ذلك؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك(٨٨).

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المرتحلة من الأحزاب وغبارها يسطع في الأفق تشيعها كلمات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم»، ثم يعقب راوي السير بقوله: «فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة.. رواه البخاري»(٨٩). وقولة الرسول هنا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتى المهدد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذي تمثل في تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضا كبيرة لكن بعكس ما توقع الأحزاب وما كانوا يرجونه، فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، ونفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالي رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعوراً وطنيا جارفا زاد من تلاحم المهاجرين والأنصار، حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانشمار الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهي تحرير يثرب تماما من العنصر اليهودي، بغزوة قريظة، التي قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أي حلفاء، مما اضطرهم في النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

---

(٨٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٦.

(٨٩) نفسه: ص ١١٧.

مذبحة قريظة:

عن عائشة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بنى قريظة، ثم قال البخارى.. عن أنس بن مالك قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غنم، موكب جبريل حين سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة[٩٠].

أو برواية الطبرى:

> فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ماوضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة، وأنا عامد إلى بنى قريظة، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مناديا فأذن فى الناس:
>
> من كان سامعا ومطيعا، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة[٩١].

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمراً إلهيا، حمله جبريل إلى الرسول الأمين، يقدم البيهقى الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك الأمر السماوى، فى قوله:

> وخرج النبى فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مر بكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبى على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أرسل إلى بنى قريظة ليزلزلهم ويقذف فى قلوبهم الرعب.

هذا؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -[٩٢].

وطاعة لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بنى قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهدأ بعد

---

(٩٠) نفسه: ص ١١٩.

(٩١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٩٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة. واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقتربا من الحصون، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه، كان يهود قريظة يرهفون الأسماع وهم يرجفون لندائه - صلى الله عليه وسلم - :

يا إخوة القردة والخنازير:

لكن ليرد المرتعدون:

يا أبا القاسم ماكنت فحاشاً!![93].

ليعود النبى يناديهم:

يا إخوان القردة:

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولا!![94].

وأمام ما تراه قريظة، أخذت تصرخ طالبة من محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرسل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى، وسمح الرسول لأبى لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم، ونتصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

ولم نجد قولا لأبى لبابة، بل إشارة وحركة ذات معنى، فيورد ابن كثير رده على التساؤل:

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمرّه عليه، يريهم أنه إنما يريد بهم الذبح[95].

وهو ذات ما يرويه الطبرى فى قوله:

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف، - وكانوا حلفاء الأوس -

---

(٩٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٠.

(٩٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.

(٩٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢١.

نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم، فلما رأوه

قام إليه الرجال

وجهش إليه النساء

والصبيان يبكون فى وجهه

فَرِقَّ لهم

وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم

ثم أشاره بيده إلى حلقه

: إنه الذبح(٩٦).

وندخل مع الطبرى إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور فى الداخل، فى تلك الهنيهات البارقة الراجفة من الزمن، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول:

وقد كان حيى بن أخطب النضرى، قد دخل على بنى قريظة فى حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم:

يامعشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه.. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً.. قال: فهلمّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد.. ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا؟! .. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازما!!(٩٧).

---

(٩٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٤.

(٩٧) نفسه: ص ٥٨٣.

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة، أنها لن تقاتل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعا، وبالفعل ينزلون في طابور طويل يكتف فرداً فرداً بالحبال التي تصلهم ببعضهم، لينتظروا مصيرهم، آملين في موقف الأوس أحلافهم لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم في وهمهم هذا، نسمع الطبري يقول:

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دار امرأة من بني النجار (أي من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - إلى سوق المدينة.. فخندق بها خنادق[٩٨].

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس، حيث تواثبت الأوس حول النبي تذكره بأن قريظة مواليها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من الخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة، وهنا يجيبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد ابن معاذ»[٩٩].

في ذلك الوقت كان سعد يعاني من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي - صلى الله عليه وسلم - لأن سعداً لقي نهايته الفاجعة خلال أيام، حيث قام النبي - صلى الله عليه وسلم - يحسم له جرحه بنفسه كيا بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف، فعاد النبي إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى، أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل.

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبري بقوله:

فلما انتهى سعد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - صلى الله عليه وسلم -: قوموا إلى سيدكم.. فانزلوه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أحكم فيهم، قال: فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء..

---

(٩٨) نفسه: ص ٥٨٨.
(٩٩) نفسه: ص ٥٨٦.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسعد:

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(١٠٠).

وهنا يكشف لنا الطبرى سر الخنادق التى أمر النبى بخندقتها، بينما كان القرظيون يكتفون بالحبال، حيث يقول: إن النبى قد «بعث إليهم، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج إليه إرسالا، وفيهم عدو الله حيى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المكثر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة»(١٠١).

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالى:

أُتى بعدو الله حيى بن أخطب.. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

أما والله مالمت نفسى فى عداوتك أبداً.

ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه(١٠٢).

ويشرح لنا رجالاتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيصور لنا الواقدى أحد المشاهد بقوله:

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر لنا يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل على والزبير يضربان أعناقهم بين يديه(١٠٣).

ويحدد لنا البيهقى مكان المقتلة بدقة فيقول:

قتلوا عند دار أبى جهل التى بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطاً، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق(١٠٤).

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة فى الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب

---

(١٠٠) نفسه: ص ٥٨٧، ٥٨٨.

(١٠١) نفسه: ص ٥٨٨.

(١٠٢) نفسه: ص ٥٨٩.

(١٠٣) نفسه: ص ٥٩٣.

(١٠٤) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠.

كانوا يحملون لقريظة العداوة، ولما كان الخزرج أخوال النبى، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مصوراً لنا مشهداً أوسع للمذبحة:

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، ويسرهم ذلك، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخزرج، ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذى بين الأوس وقريظة، ولم يكن بقى من بنى قريظة إلا اثنا عشر رجلا، فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلا من بنى قريظة، وقال: ليضرب فلان، وليذفف فلان(١٠٥).

أما شأن سعد بن معاذ فنعرف من خبره أن أكحله الذى حسمه له النبى - صلى الله عليه وسلم - قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذى هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقى:

إن جبريل أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى جوف الليل، معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يامحمد؛

من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجر ثوبه، مبادراً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قبض.

ومن ثم وقف النبى يشير إلى سعد وهو يعلن:

إن هذا الذى تحرك له العرش..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك(١٠٦).

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة فى تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله:

ولما حمل سعد علي نعشه، وجدوا له خفة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن له حملة غيركم(١٠٧).

وفى مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروى الترمذى والنسائى حكاية البغلة والجبة التى أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبى هدية، فى القول: إنها

---

(١٠٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧.

(١٠٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩، ٢٨.

(١٠٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٤.

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم:

أتعجبون منها؟!

لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن مما ترون(١٠٨).

ثم نعلم من مأثورنا علما جديداً بشأن تلك المذبحة، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، بل نالت أيضا من الصبية، حيث يقول الطبرى مدعما من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم(١٠٩).

وهو أيضا ما يأتينا تأكيده فى حكاية ابن إسحاق عن صبى نجا من المذبحة هو عطية القرظى، حيث يقول:

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر بكل من أنبت منهم.. عن عطية القرظى قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاما، فوجدونى لم أنبت، فخلوا سبيلى، رواه أهل السنن الأربعة.. وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ(١١٠).

وعن كثير بن السائب أن بنى قريظة عرضوا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن كان محتلما أو نبتت عانته قتل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك(١١١).

وكاد ينجو من المقتلة رجل واحد من أشراف قريظة، لولا رغبته هو فى الموت ذبحا، هو أبو عبد الرحمن الزبير بن باطا القرظى، وكان يوم وقعة بعاث قد من على ثابت بن قيس وخلى سبيله، فلما أصبح ثابت مسلما، رأى أن يرد الدين إلى أبى عبد الرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبى ويطلب حياة أبى عبد الرحمن، فمنحه إياها، وذهب ثابت يبشر أبا عبدالرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالى:

---

(١٠٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(١٠٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩١.

(١١٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٧.

(١١١) البلاذرى: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٣.

أبو عبد الرحمن: أى ثابت، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد؟

ثـــابـــت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب؟

ثـــابـــت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فماذا فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال ابن سموأل؟

ثـــابـــت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل المجلسان - يعنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟

ثـــابـــت : ذهبوا، قتلوا.

أبو عبد الرحمن: فإنى أسألك بيدى عندك ياثابت، ألا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح، حتى ألقى الأحبة.

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه فى طابور المذبحة ليأخذ دوره، فضربت عنقه[١١٢].

وبعد الانتهاء من شأن المذبحة، أتى دور الغنائم والسبايا، فأما الغنائم فيحصيها لنا ابن سعد فى قائمة طويلة كالتالى:

ألف وخمسمائة سيف

ثلاثمائة درع

ألفا رمح

ألف وخمسمائة ترس وجحفة

جمال ونواضح كثيرة[١١٣].

---

(١١٢) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٩، ٥٩٠.

(١١٣) ابن سعد: الطبقات، مج ١، ج ٢، انظر أيضاً: الواقدى: كتاب المغازى، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٥١٠.

وهى القائمة التى تشى بمدى العدة والعتاد التى كانت فى حوزة قريظة، وهو أيضا ما يفصح عن رغبة قريظة فى النأى عن الحرب طمعا فى مصير نضير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم.

وجاء دور السبايا ليقول ابن سعد:

> واصطفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر بالغنائم فجمعت، فأخرج الخمس من المتاع والسبى، وأمر بالباقى فبيع فى من يزيد، وقسمه بين المسلمين(١١٤).

أما ريحانة بنت عمرو، التى اختارها النبى، فقد قال بشأنها ابن كثير:

> عرض عليها النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق، ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفى عنها عليه الصلاة والسلام(١١٥).

ويؤكد الطبرى موقف ريحانة فى قولها لسيدها الجديد:

> تتركنى فى ملكك، فهو أخف علىّ وعليك، فتركها، وكانت حين سباها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية(١١٦).

وفاضت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيما، وتم شراء خيل وسلاح إضافى بثمنهم، لتتضخم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آت.

وهكذا جاءت دية بنى عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض، فطردت نضير من يثرب، لكن ليحزب زعماؤها الأحزاب فى غزوة الخندق التى انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة، لينتهى الأمر بالقضاء على بنى قريظة، وتطهير المدينة تطهيراً كاملا، وسيطرة النبى سيطرة تامة على يثرب، مع نمو هائل فى ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية، وهو الأمر الذى دفع المنافقين لحسم مواقفهم، حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التطاول على القوة الإسلامية المتعاظمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد

---

(١١٤) الموضع نفسه عند ابن سعد.

(١١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٨.

(١١٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩٢.

المدينة وهى النتائج التى أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تبلغ العريان وتذكرهم بقولها:

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم(١١٧) وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شىء قديراً﴾ (٢٥/٢٦/٢٧/ الأحزاب).

---

(١١٧) الصياصى: نوع من الحصون.

الباب الثانى

الاعتراف بقيام الدولـــــة

إخضاع القبائل

«يارسول الله؛ لاتحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً!!»

[زيد بن رفاعة الجذامى]

بالطبع لم تنفذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزق السعدان الصحيفة التى كان من المزمع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزارى، للتخذيل بين الأحزاب، لذلك ما أن انصرفت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التى دبرها الغطفانى الداهية نعيم بن مسعود، حتى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان، ليغيروا على لقاح النبى بالغابة، لكن بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلول يرتقيها موجها وجهه شطر يثرب منذراً صائحا: واصباحاه، عدة مرات، ثم يهرع نازلا يمنع القوم بنباله ويروى لنا ابن كثير بطولة ذلك المسلم الفرد فى صورة رائعة وهو يقول:

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمى رمى.. وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع، فترامت الخيول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما اجتمعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر عليهم سعيد ابن زيد وقال: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك بالناس.. وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. واستنقذ بعض اللقاح، وسار الرسول حتى نزل

بالجبل من ذى قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوما وليلة، وقال سلمة ابن الأكوع يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. إنهم الآن ليغبقون فى غطفان.. ثم رجع قافلا إلى المدينة.. (ويقول ابن الأكوع) ثم رجعنا، وردفنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ناقته حتى قدمنا المدينة[1].

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبى ثمانية رجال من عرينة، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبى سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادى لا يطيقون المدن والزروع، فأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذى يرعى بذى الحدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدوا على لقاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتلوا واحداً من عبيد النبى[2]، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهرى، ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبى وبحق الدولة، وهو الجزاء الذى جاءنا ذكره فى البيهقى وهو يروى:

> فلم ترتفع الشمس، حتى أُتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم فى الحرة ليستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا[3].

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم[4].

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تكثف مرة أخرى من سراياها المسلحة التأديبية المنذرة، لتؤوب القبائل إلى سابق انكماشها، فكانت سرية عبد الله بن أنيس الجهنى، التى سرت إلى خيبر لتنتقم من مشاركة سادتها فى تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها: أسير بن رزام، جزاء وفاقا لما قدمت يداه[5]. لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدى مغيراً على قومه بنى أسد فى الغمر، ويبدو أن الأسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبى عليهم، فهربوا مع نعمهم وشياههم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغا، لكنه لم

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥١: ١٥٣، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٨: ٦١.

(٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٧.

(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٧.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) نفسه: ص ١٤٦.

يشأ أن يرجع فارغا، فهجم على بنى عمومة لهم ليستاق منهم مائتى بعير يعود بها مغنما إلى يثرب[٦].

وإذا كانت حكمة الأُسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بنى ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما أن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذى القصة باتجاه الربذة فى عشرة من المسلمين، حتى نذر به الثعالب بدهائهم، وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلاً، ولم ينج سوى مسلم واحد خرج سليما، ليحمل محمد بن مسلمة جريحا ويعود به إلى المدينة.

وفوراً يرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرية أبى عبيدة بن الجراح للضرب على يد بنى ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مقاتلا يهبطون على ذى القصة متسللين متخفين ليفاجئوا الثعالب فى عماية الصبح، ولكن مرة أخرى ينذر به الثعالبة - متأخرين بعض الشيء - فيهربوا إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سبلها، ولا يتمكن المسلمون منهم فيكتفوا بحيازة أنعامهم التى تركوها، وينحدروا بها عوداً إلى المدينة.

ووسط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتزويج السماء لزينب من النبى، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسى، فى عدد من السرايا المتوالية، أو ليرسله النبى فى عدد من السرايا المتتابعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بنى حارثة من قبائل سليم ليصيب منهم سوائمهم، ثم يردفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام، بها فضة عظيمة، فيستولى على ما فيها، ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، فيغنم منهم أنعاما جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادى القرى، بأمر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتقاما من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على صديق النبى دحية الكلبى، الذى كان يتمثل به جبريل الملاك، فيسلبوه منحة قيصر له، وينزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قوما كثيرين، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده، ويأخذ نعمهم وماشيتهم ونساءهم، وما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بعير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان، ولا يصاب البطل المسلم المتميز زيد فى كل تلك السرايا إصابة واحدة.[٧]

لكن بين جذام والنبى كان كتاب موادعة سابق، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعة إلى النبى، فى نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو - ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ابن سعد وهو يحكى:

---

(٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦١.
(٧) نفسه: ص ٦١، ٦٢.

فدفع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابه الذى كان كتب له ولقومه، وقال:

يارسول الله؛ لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما.

فقال الرسول:

وكيف أصنع بالقتلى؟

قال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يارسول الله من كان حيا، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: صدق أبو يزيد(٨).

وما أن يرحل الجذاميون، بما كان لهم عند النبى، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة إلى وادى القرى(٩). لتعطى تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومى والمشرق الكسروى، ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات، بإغارة عبدالرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله على قبائل كلب فى دومة الجندل بالشمال، وهناك يعلن زعيمهم الأصبغ اتباعه للدولة وللدين ويشهر إسلامه، ويزوج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى المدينة(١٠). ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لازالت بحاجة إلى تأكيد، فتخرج إليها سرية على بن أبى طالب إلى بني سعد بن بكر فى فدك، ليغير عليهم على غرة، فيهزمهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفى شاة وخمسمائة بعير يعود بها، أما كلب التى كانت فى الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم ما تأكد لها من عهود مع دولة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ(١١).

وهكذا أبلغت السرايا وبلّغت رسائلها إلى الشمال الرومى، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم نصف العالم آنذاك: قيصر الروم.

---

(٨) نفسه.
(٩) الموضع نفسه.
(١٠) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.
(١١) نفسه: ص ٦٥.

غـــزوة المصطلق

«ســـــمن كلبـــــك يأكـــــلك !!»

[عبدالله بن أُبى بن سلول]

يا منصور: أمت، أمت،

صيحة الفزع المرعبة التى دوت على ماء (المريسيع) فجأة ودون سوابق أو ممهدات، بمضارب (بنى المصطلق)، ليهبط عليهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجاله فى جمادى الآخرة من عام ستة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم ونعمهم، تجمع بيد السيد المنتصر(١٢).

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة فى النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقى، (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها(١٣)، فتقع فى سهم جندى مسلم اعتيادى هو قيس بن الشماس، ومن ثم تحكى لنا جويرية وهى ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يلائم مكانتها:

رأيت قبل قدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاث ليال، كأن القمر

(١٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، مج ٤، ص ٨، ٦.
(١٣) نفسه: ص ١٩.

يسير من يثرب، حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما سبينا، رجوت الرؤيا[14].

ولتحقيق الرؤيا، ساومت آسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويطلقها حرة، بموجب مكاتبة على العتق بذلك، وهى تعلم يقينا أنها أسيرة لا تملك مالا تشترى به نفسها، ولا تعلم حتى إن هى اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلا وأسراً، ومن ثم قررت أن تختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبى لتطلب منه إعانتها فى مكاتبتها!!

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:

فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها وعرفت أنه - صلى الله عليه وسلم - سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها -؟ فهو ما توضحه فى قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحة

لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه

ويشرح لنا السهيلى شارح السيرة المعنى قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح..

والملحة هى البياض..

وملاحة: فى العينين

وقال الأصمعى:..

الملاحة فى الفم..

وقول عائشة.. من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه - صلى الله عليه وسلم -

ونتابع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - لتقول:

يا رسول الله:

أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار

---

(١٤) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠.

سيد قومه

وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك

فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس

فكاتبته على نفسى

فجئت أستعينك فى كتابتى

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاحة، ويملأ عينيه منها، ليعقب السهيلى على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، ما ملأ عينه منها، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، ويجوز أن يكون نظر إليها، لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التى قالت له: إنى وهبت نفسى لك.. وقد ثبت عنه عليه السلام. الرخصة فى النظر إلى المرأة، عند إرادة نكاحها» .

وكان ما توقعته جويرية الحسناء، التى تعرف قدر حسنها، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبى بعد تأمله الطويل:

فهل لك فى خير من ذلك؟

قالت: وما هو يارسول الله؟

قال: أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يارسول الله قد فعلت.

وهنا تعقب السيدة عائشة - رضى الله عنها -: «وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها»[١٥] .

ويقول ابن سيد الناس: «وكان الإبل ألفى بعير، والشاة خمسة آلاف شاه، وكان السبى مائتى بيت»[١٦] .

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يحل على أهلها بركة وسلاما، لتزف إلى سيد الخلق فى

---

(١٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، انظر معه شرح السهيلى، مج ٤، ص ٨، ٩، ١٨، ١٩ .

(١٦) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٤ .

زيجة جديدة، عكر صفو العرس حدث جديد أحدثه عبد الله بن أبى بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعتهم كتب الأخبار بالمنافقين، وهو ما يأتينا خبره فى عدد من الروايات، أولها ما رواه بن هشام فى قوله: إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء المريسيع «وردت واردة الناس، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجهاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجهاه، وسنان ابن وبر الجهنى حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجهاه: يامعشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبى بن سلول، وعنده رهط من قومه، فقال:

أو قد فعلوها؟

قد نافرونا وكاثرونا

والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُول:

سمن كلبك يأكلك

أما والله لئن رجعنا المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير دياركم»[١٧].

ويسمع الصبى (زيد بن أرقم) ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبى يهمس له بما قال ابن سلول، ويسمع الأنصار همس الصبى، فينبرون دفاعا عن رجلهم المقدم: «يارسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ماقال الرجل، حدبا على ابن سلول ودفعا عنه»[١٨].

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذاً فيقول للنبى وهو يرعد: مر عباد بن بشر فليقتله»، لينافس عمر ولد عبد الله بن سلول الذى يحمل اسم أبيه (عبد الله)، فيهرع إلى مجلس النبى يقول: «إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا، فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه»[١٩].

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله:

---

(١٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧.

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) نفسه: ص ٨.

فكيف ياعمر إذا تحدث الناس:

أن محمداً يقتل أصحابه؟

ويلتفت إلى (عبد الله بن سلول) الابن ويقول له بكل حب أبوى ورحمة نبوية:

لا

بل نترفق به

ونحسن صحبته ما بقى معنا[٢٠].

وهى الحكمة والرحمة البليغة، التى كانت رداً غير منتظر، وضع ابن سلول فى موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفزع والرعب شعور المهانة والتدنى والخجل، وهى المشاعر التى دفعته يسعى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلم به.

وكى تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أى طارىء جانبى قد يحدث بين انصارى ومهاجر هنا أو هناك، وما قد يجره أى حدث جانبى من تفكك فى الجبهة الإسلامية، أمر النبى القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل الفورى على عجل ودون إبطاء، فى ساعة هجير شديدة القيظ، ويحكى ابن إسحاق:

فلما استقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه تحية النبوة وسلم عليه، وقال يانبى الله، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ .. يارسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسا من الأرض، فوقعوا نياما.

ويعقب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله ابن سلول»[٢١].

---

(٢٠) الموضع نفسه.

(٢١) نفسه: ص ٨٠٧.

أما إجابة الرسول الحكيمة لعبد الله بن سلول الابن، ولعمر بن الخطاب، فسرعان ما آتت ثمارها، فيما يخبرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»[٢٢].

ولم يكن حدث ابن سلول المعكر الوحيد لصفو العرس الجديد، فالصبى زيد بن أرقم الذى مدحه النبى وكرمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال - صلى الله عليه وسلم -: «هذا الذى أوفى الله بأذنه»، وجد له دوراً، فعاد يهمس للنبى أنه «سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: لئن كان هذا صادقا، لنحن شر من الحمير» فيرد عليه الصبى: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار»[٢٣].

ويتعالى التشكيك فى نبوة النبى من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقى:

> وفقدت راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان فى رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضلت، فقال المنافق: ألا يخبره الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، نافقت[٢٤].

أما أشد المنكرات من أحداث معكرة، صاحبت غزوة المصطلق، وعكرت عرس النبى بجويرية، ما جاء بحديث الإفك عن أم المؤمنين الغيور وهى تصحب زوجها فى زفة عرسه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل فى القصة المعروفة التى أتى بها عصبة من الأفاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخلها بالوحى الصادق، الذى برأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

---

(٢٢) نفسه: ص ٧.

(٢٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٧.

(٢٤) نفسه: ص ٥٩.

غزوة الحديبية

«أما الرحمن فلا أدرى والله ماهو؟!»

[سهيل بن عمرو]

بمجىء شهر ذى القعدة، بداية موسم الحج الجاهلى، وفجأة، ودون أى علامات أو مقدمات منذرة، يتم التحول دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر، يوم قام النبى من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه، أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وهو ما يعقب عليه السهيلى فى شروحه «كان النبى قد رأى ذلك فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى»(٢٥).

ومن ثم، نادى المنادى بين مسلمى يثرب، وبين عربان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب الذين حالفوها سياسيا بإسلام من البعض وبعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق:

«واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه.. فأبطأ عليه كثير من الأعراب ويتابع ابن سعد يقول: «واستنفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه إلى العمرة، فتهيأوا وأسرعوا، ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء.. ثم دعا بالبدن التى ساق فجللت ثم أشعرها فى الشق الأيمن وقلدها، وأشعر

(٢٥) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

أصحابه أيضا.. وهى سبعون بدنة.. وأحرم ولبى.. وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة»[٢٦].

ولاشك؛ أنه مثلما كان للنبى عيونه داخل مكة، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيونا لها بيثرب، تلك العيون التى - لابد - قد أخذتها الدهشة، وهى ترى النبى يفعل فعل قريش، فيدعو إلى عمرة، ويمارس ذات شعائر قريش، فيسوق أمامه البدن (البعير المساقة هديا للذبح)، بعد أن جللها وقلّدها، بل ويسير أمام رجاله يلبى فيلبون، معلنا أنه قد جاء ساعيا معتمراً لا يريد حربا[٢٧]. فى الوقت الذى كانت تأتيه عيونه الخزاعية بخبر يقول: «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعهم، وهم قاتلوك أو مقاتلوك»[٢٨].

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة، التى أرادها النبى رسالة مبلغة إلى قريش، لتعلم أنه جاء محترما مشاعرها وشعائرها وطقوسها، وهى الطقوس المرتبطة جميعا بتجارتها ومكاسبها، وما فى تلك الرسالة من طمأنة ضمنية وإبراق فصيح بالتحولات الآتية، فإن مكة لم تر فى ذلك العدد الهائل من المقاتلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة، سوى محاولة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة، محتمية بحرمة الأشهر الحرم، لتعمل سيوفها فى بطن مكة من الداخل بغتة، وهو الدرس الذى لم تنسه قريش منذ سرية عبدالله بن جحش التى انتهكت الأشهر الحرم، وحللها الكلم القرآنى وصادق عليها، لذلك ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة، حتى أخذت مكة تهيىء رجالها على الطريق، لتقف فى وجه الغزو الآتى. وبلغ النبى أن على الطريق قد وقف بنو لؤى بجموعهم وخيلهم، فتوجه إلى رجاله قائلا:

> أشيروا علىّ، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم، فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محرومين، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟[٢٩].

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بنى لؤى الخالية من الرجال، ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقا قطعها الله، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعترضتهم قريش قاتلوها، ورداً على استشارة النبى رجاله جاءه جواب أبى بكر الصديق الحكيم «.. من حال بيننا وبين البيت قاتلناه»[٣٠].

---

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦. انظر أيضاً ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٩.
(٢٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦.
(٢٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٩، ١٠٠.
(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.
(٣٠) الموضع نفسه.

وإعمالا للمشورة، يخبرنا ابن سعد بما تلى ذلك من أحداث؛ فيقول:

> سار النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى دنا من الحديبية، وهى طرف الحرم، على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنية، تهبطه على غائط القوم، فبركت، فقال المسلمون: حلّ، حلّ، يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتى برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل فى فحواها معانى لذوى العقول، فى قول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -:

> إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل، أما والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فقامت، فولى راجعا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية[٣١].

وبينما القوم ينيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبى خبراً آخر عند عسفان، يقول للنبى:

> يارسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:
>
> ياويح قريش
>
> لقد أكلتهم الحرب
>
> ماذا لو خلوا بينى وبين سائر العرب؟
>
> فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا،
>
> وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين،
>
> وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؟!![٣٢].

وتحاشيا للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبى بين رجاله: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟»، فيقوم له دليل يسلك معه النبى وجيشه طريقا وعراً بين الشعاب، حتى يهبط الوادى، وتعلم قريش بمكانه، فترسل له حليفا له من خزاعة، هو بديل بن

---

(٣١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢ ج ١، ص ٦٦.

(٣٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥.

ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبى برسالة أخرى تؤكد أنه جاء معظما لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم، ويذهب بديل بالرد النبوى ليقول «يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً معظماً لهذا البيت»، لكن قريشا التى تعلم هوى خزاعة مع النبى تتهم بديل وتخونه، ذلك الهوى الذى كان يعلمه كتاب السير والأخبار، وهو ما أفصح عنه ابن كثير فى قوله:

> وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة[٣٣].

ولتجب على بديل بردها:

> وإن كان جاء لايريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث العرب بذلك عنا[٣٤].

وتتذاكر قريش ما حدث لقريظة، ذلك الحدث الذى أذهل العرب جميعا وقريشاً بخاصة، فأى قتال كان فى الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعا، وإبادة قوم بكاملهم، وما صحب الحدث من إنذارات تمثلت فى الآى الكريم ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾، ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضا منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبى الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهى تتصور دخوله عليها، ومصير كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر، فقامت تدفع برسلها إليه رسولا فى عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤى الذين يحملون للنبى كراهية، فلما رآه النبى مقبلا، قال «هذا رجل غادر»، ثم قال له ماسبق وقال لبديل ليحمله إلى مكة»[٣٥].

ثم يردفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدروشوا فى حب البيت حتى قدسوا أمره جميعا، وصاروا يمثلون أشد الاتجاهات تعظيما لحرمة البيت وشعائره، فلما رآه النبى قادما عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون»، ويشرح ابن سيد الناس معقبا شارحا «يتألهون: يعظمون أمر الإله، قال الخشنى: التأله التعبد، ورأيت عن ابن الكلبى فى نسب الحليس ابن ريان: أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن المغفل»[٣٦]، ومن هنا كان التصرف الذى يمكن أن يقنع الحليس، فقال النبى بسرعة: «ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه»، أى ارسلوا النوق المشعرة المجللة المهداة للذبح ليراها، وهنا يقول ابن هشام:

---

(٣٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.
(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.
(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.
(٣٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٢.

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظاما لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابى لا علم لك(٣٧).

وترسل قريش رسولا آخر إلى مجلس النبى، من سادة ثقيف، هو (عروة بن مسعود الثقفى). الذى وصل إلى مجلس النبى وجلس قبالته مباشرة، ليفصح عن رعب قريش وذكرى قريظة فى قوله:

يامحمد

أرأيت إن استأصلت قومك،

فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟

يا محمد

جمعت أوشاب الناس (الأوباش)، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟

لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!!

لكن ليرد عليه أبو بكر على الفور:

أُمْصُصْ بظر اللات

أنحن ننكشف عنه؟

فيلتفت عروة ليسأل النبى: من هذا يامحمد؟

ولما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبى بكر، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر كان ملبسا بالحديد، خوذة ودروع، ويجيبه النبى: «هذا ابن أبى قحافة»، فيرد عليه عروة معرضا عن إهانته «والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بهذا، ولكن هذه بها».

ويستمر عروة يحدث النبى، ويتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلما حدثه، «والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك، ما أغلظك».

ويبتسم رسول الله، لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مدرع بالحديد، ذلك الحديد الذى كان

---

(٣٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.

كافيا لإقناع عروة أن الأمر ليس أمر عمرة أبداً، ويتساءل عروة: من هذا يامحمد؟ فيجيبه: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك، ثم فر إلى النبى مسلما، ودفع عنه عمه عروة ديتهم جميعا، وهنا يقول عروة للمغيرة: «أى غدر؟ وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟».

ويتطلع عروة حوله، فيرى بين إبل الهدى جملا مهدى لأبى جهل، وهو ما جاء فى قول ابن عباس «أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهدى عام الحديبية فى هداياه جملا لأبى جهل، فى رأسه برة من فضة».

ويقلب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجبا، فالرسول لا يبصق بصاقا إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يحدون النظر إليه تعظيما وإجلالا، فينهض الرجل مشدوها مبهوتا، ويعود إلى قريش يقول:

يامعشر قريش؛
إنى قد جئت كسرى فى ملكه
وقيصر فى ملكه
والنجاشى فى ملكه
وإنى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه
مثل محمد فى أصحابه[٣٨].

وهنا يخطر للنبى خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلا عزيزا على ملأ مكة وأشرافهم من الأمويين، هو (عثمان بن عفان) الأموى، فيرسله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم، ويتأخر عثمان فى العودة، لأمر كان مقدوراً فى باطن الزمان، حيث تسرى شائعة لا نعلم من أطلقها؟ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش، ومن ثم توجب الانتقام، فيدعو النبى المسلمين فجأة ودون مقدمات واضحة، إلى بيعته، تسليما له في أى قرار يتخذه دون مناقشة، فكانت بيعة الرضوان على أى أمر يراه النبى حتى لو كان الموت، ومن هنا كانت تلك البيعة تسليما لما هو فى باطن الساعات الآتية، آت. وكوفىء جميع من أعطى التسليم فى قول النبى لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها»[٣٩].

---

(٣٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٢ . انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦: ٢٩، انظر أيضاً شرح السهيلى فى الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥.

(٣٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٣.

وبانتهاء البيعة، يظهر عثمان ابن عفان سليما معافى ليس فيه شيء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تزحزح محمداً ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصة بعدما بلغتها الرسالة: «والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»، وهى ما تعنى رغبة فى الصلح.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المفاوضات المحنك إلى النبى، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطا تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبى فور أن رأى سهيل يهل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهل الله لكم أمركم»(٤٠).

ويجلس سهيل مع النبى، ويعرض عليه عروض مكة، وهى الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجارى، **ويوافق النبى.**

وأن من أحب أن يحالف قريشا من العرب حالفها، ومن أحب محالفة محمد حالفه، **ويوافق النبى.**

وترتفع المطالب المكية تدريجيا للاختبار وجس النبض ليقول سهيل:

ومن أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليهم، **ويوافق النبى.**

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه إليه، **ويوافق النبى.**

ويستمر سهيل: ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا فى العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادى، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مغادراً، **ويوافق النبى.**

ويقول ابن كثير: إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبى أمامه كادوا يهلكون غما وغيظا ونكداً، ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمى، فعندما بدأ النبى يملى عليا بن أبى طالب الكتاب قائلا: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» رد سهيل على الفور:

أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو؟!

اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يصرون على «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن النبى يقول لعلى: «اكتب باسمك اللهم؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، لكن ليعترض سهيل: بالقول:

---

(٤٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥.

لو كنا نعلم أنك رسول الله
ما قاتلناك. لكن اكتب اسمك
واسم أبيك.

فيأمر النبى عليا أن يمحو «رسول الله»، فيرفض على رفضا قاطعا قائلا: «والله لا أمحاك أبداً»، فيمسك النبى الصحيفة - فيما روى البخارى - ويمحو «رسول الله» ويكتب بخط يده «محمد بن عبد الله»[٤١].

وبينما المسلمون فى غم وشدة وكرب، يأتى ما يزيد الهم هماً والكرب كروبا، فيفاجئهم أبو جندل ابن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف فى قيوده ليصل فى تلك اللحظة الحرجة إلى النبى جالساً مع أبيه يكتتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلا للنبى - صلى الله عليه وسلم: «وهذا يامحمد أول من أقاضيك عليه أن ترده، فيرد النبى: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، لكن ليرد سهيل بعنف، مقسما إن لم يفعل: «والله لا نصالحك على شىء أبدا»، فيقول النبى - صلى الله عليه وسلم - «إذن فأجره لى»، فيقول أبوه «ما أنا بمجيره لك»، فيعود النبى للقول راجيا: «بلى، فافعل»، لكن ليرد سهيل «ما أنا بفاعل».

ويروى لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى:

> فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، وقد انفلت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد خرجوا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا من الصلح، والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله فى نفسه، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يامحمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتزه بتلبيبه ويجره، يرده إلى قريش؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا، إنا

---

(٤١) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٤.

عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم، فوثب عمر بن الخطاب يمشى مع أبى جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه(٤٢).

وقد لقى عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقا شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبى يقول:

ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟

قال: نعم.

وبين الإجابة، وبين واقع ما يحدث، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبى بكر يقول فى حوار متوتر:

عمـــر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

أبو بكر: بلى.

عمـــر: أولسنا بالمسلمين؟

أبو بكر: بلى.

عمـــر: أوليسوا بالمشركين؟

أبو بكر: بلى.

عمـــر: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

أبو بكر: ياعمر الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله.

عمـــر: وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!!

ويشرح السهيلى معقبا على قولة عمر، التى لم تحوله إلى منافق كما هى العادة مع المعترضين والشكاكين:

وفى هذا أن المؤمن قد يشك، ثم يحدد النظر فى دلائل الحق، فيذهب

---

(٤٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧، انظر أيضاً البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥، ١٠٦، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٠، ٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦.

شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد[٤٣].

وأمام شك رجل فى وزن عمر، وهو من هو، وهو وزير الرسول، وهو الذى عز به الإسلام، جاء الوحى ليقطع الشك باليقين الصادق مؤكداً:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ (٢٧/ الفتح).

و ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ (١/ الفتح).

ومع تأكيد الوحى أن الرؤيا قد صدقت، وأن كتاب الصلح كان فتحا مبينا، كان يفترض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لهم رأى آخر، «فقال رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت، وصد هدينا، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح»[٤٤]. ومن ثم يثنى ابن هشام موضحا ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يارسول الله أنك تدخل مكة آمنا؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامى هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لى جبريل عليه السلام»[٤٥].

ونعود إلى المسلمين وهم فى كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية فى اتفاق هدنة ومصالحة، لنرى النبى بعد توقيعات الشهود يقوم ينادى رجاله لاستكمال شعائر العمرة التى لم تتم، قائلا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، ليقول لنا ابن الأثير أن الناس جميعا قد تعصبوا على رسول الله، فى قوله «فما قام أحد، حتى قال ذلك مراراً، فلم يقم أحد منهم، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يانبى الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما»[٤٦].

ويقول ابن هشام: إن النبى «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق.. فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون.. عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: يرحم الله

---

(٤٣) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧، ٣٨، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٠.
(٤٤) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦١.
(٤٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.
(٤٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.

المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: والمقصرين، فقالوا: يارسول الله فلم ظاهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: **لم يشكّوا**»[٤٧].

أما الرجل الآخر الذى جاء النبى مسلما فرده إعمالا لبنود الهدنة، فهو أبو بصير بن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فكتب فيه للنبى الأزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا بالكتاب رجلا من بنى عامر ومعه مولى له، يطلبون رد أبى بصير، فرده معهما، لكن ما أن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامرى وقتله، وعاد للنبى يقول: «يارسول الله وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه، أو يعبث بى». وغادر أبو بصير مجلس النبى ميمما خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبى بقوله يردد:

ويل أمة محش حرب

لو كان معه رجال؟!

وبلغت كلمات النبى المستضعفين بمكة، «لو كان معه رجال» فخرج إليه نحو سبعين رجلاً من المستضعفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها، حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبى تسأله فيها بصلة الرحم أن يأوى أبا بصير ورجاله فى يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة[٤٨].

ولم يكن ذلك أول كسر لبنود صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضى المكره، وكان بتحريض من النبى، لكن حدثت كسور أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت عقبة إلى النبى، وخرج وراءها أخواها عمارة والوليد ليردها عليهم النبى بعهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبى - عليه الصلاة والسلام - «فلم يفعل، أبى الله ذلك»[٤٩]. فالله هو الذى أبى وليس النبى، بدليل الوحى القائل: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ (١٠/ الممتحنة).

ورغم تأكيد النبى، والله، أن ما حدث كان أعظم الفتح، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض، ومن جانبهم رأى كتاب السير والأخبار أن يضيفوا للأمر بعض المبهرات من أحاجيهم المعتادة، فيروى البيهقى عن البراء:

---

(٤٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.
(٤٨) نفسه: ص ٣١.
(٤٩) نفسه: ص ٣٢.

كنا مع النبى أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركها غير بعيد، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

ومعجزة مائية أخرى، يرويها لنا الصحابى جابر فى حوار له مع شعبة إذ يقول:

أتى رسول الله بماء فى تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة(٥٠).

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش فى قول الصحابة للنبى: «يارسول الله، لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق، أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جمام، قال: لا، ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم، فبسطوا أنطاعا ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم، فدعا عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة، فأكلوا حتى تضلعوا شبعا، ثم لفلفوا فضول ما فضل من أزوادهم فى جربهم.. عن عبد الله قال.. كنا نأكل مع النبى ونحن نسمع تسبيح الطعام»(٥١).

نتائج الحديبية:

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية: «فما فتح فى الإسلام قبله فتح أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم، فدخل الإسلام فى تينك السنتين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر»(٥٢). ويقصد ابن الأثير بالسنتين، السنتين اللتين مرتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذى سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحى الواضح: أو فتح هو؟ حتى اضطر سيد الخلق إلى القسم بالله للناس أنه فتح قائلا: «أى والذى نفسى بيده إنه لفتح»(٥٣). فكيف يمكن رؤية ما حدث فى الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتوح.

إن قليلاً من التمعن فى خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم

---

(٥٠) أخرجه البخارى فى ٦٤ كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.
(٥١) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٥، ١٢٠، ١٢٩.
(٥٢) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.
(٥٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١ ص ٧٦.

بالفعل، وعمل دبلوماسي من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسة، يستحق أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصداقية الرسول الكريم وبلاغة الوحْي الصادق، هو فتح الفتوح.

* لو عدنا قليلا إلى الوراء نطالع تطور الأحداث بعد غزوة الخندق سنلحظ دون جهد يذكر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذى قامت به فى الخندق، قد تحولت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذى لم يهدأ لليهود بين قبيلتى أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بميرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فدك وما وراءها.

وكان وصول المعلومات إلى النبى عن خيبر أولا بأول قد كونت لديه فكرة واضحة عن تنامى قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى وأصبحت مركز قوة جديد، أزاح قريش إلى موقع خلفى، وكان معنى أن تترك خيبر تتنامى دون تدخل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعنى أن المدينة سوف تصبح بين طرفى معادلة شديدة الخطورة، فخيبر فى الشمال مع أحلافها، وقريش فى الجنوب، وأى تحالف ثنائى بين خيبر وقريش كما حدث فى الخندق كان كفيلا بتهديد حقيقى لدولة يثرب.

ومن ثم كانت عمرة الحديبية التى وعى مؤرخونا أهدافها فأسموها غزوة الحديبية، حيث كان النبى قد توجه نحوها بعسكره مسلحين مدرعين ملبسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعى حمّله إلى قريش رسالة واضحة تقول:

إننا لم نجىء لقتال أحد
ولكننا جئنا معتمرين
وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم
فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس
وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا
وإلا فقد حموا
وإن هم أبوا
فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره[٥٤].

---

(٥٤) الدياربكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت، ج ٢، ص ١٨.

وهكذا أعلن النبى لقريش أنه يعلم بحالتها المنهكة والمتردية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاها هدنة محددة المدة، وكى يدفعهم لقبول الهدنة، أرفق بخيار الهدنة خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يعلن لأصحابه أبدا الرغبة فى الهدنة بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم فى أكمل استعداد للانقضاض، ولم يظهر لهم إطلاقا ماقر فى ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدنة.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذى ظهر فى إرسالها السفراء واحداً إثر آخر، أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدنة كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط تتمثل فى أنه سمح بتسرب الأخبار لقريش عن مسيرة إليها، بقصد أن يعلموا بتحركه، ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموى تحديداً برسالته إلى أهل مكة، ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التى تقف أمام عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذى فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجيعة مما يحدث.

* لأول مرة يعترف الملأ المكى سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المقدمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون فى عهد مكتوب وكتاب موثق بشهادات الشهود، بدولة يثرب، وبسيدها، اعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد، بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ما يعنى تخلى قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل فى عقد محمد، واكتفائها بتحصين نفسها ضد مؤثراته، وهو الأمر الذى سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب فى حلف يثرب بأعداد لم تشهدها الدولة من قبل، أليس ذلك إذن فتح الفتوح؟!

* ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبى مع رجاله أن يزوروا مكة أياماً ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة، حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب، مما يتيح لهم المقارنة والفهم.

* كما أدت الحديبية إلى تفكك المجتمع المكى وانهيار مقاومته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار قريش السيادى، ومن ثم دخل رجالهم المقدمون فى دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

* كان اليهود يشكلون فى بداية الأمر مطمحاً لدعوة الإسلامية، للانضواء تحت لوائها واتباع صاحبها، لكن بمضى الوقت تكشف لليهود وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختلاف توجهاتهم بل

وتضاربها، وكان استمرار وجود اليهود فى يثرب على يهوديتهم يشكل شرخاً عميقاً فى بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة موحدة، وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوى الذى يأتى منه الكلم القرآنى، وكان مفترضاً أن يكونوا مصدقين لما آتى محمد من آى الكتاب القرآنى، لكنهم إطلاقاً لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العربان فى مدى صدق علاقة الآى القرآنى بالسماء، لكن وجودهم فى يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبى الدينية حمل للعربان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المنكر السماوى القائم فى الواقع العربى للوحى القرآنى، وهو ما أدى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعد ما كانوا عنده أفضل العالمين. وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الوراء، فحلت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبى إلى تمجيد المعبد الذى قدسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهى العودة التى صحبت باحترام ذلك البناء المكى المتواضع هندسياً ومعمارياً، وإلقائه فى رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم فإسماعيل، وهو التحول الذى لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نتيجة الخندق يتخلص من آخر يهودى بيثرب، ليتحول تماماً مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيهل بالمناسك الأولى التى هى مناسكهم وأعرافهم التى تواضعوا عليها، ثم لا شك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المقدم، وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يواريه ثرى بدر: «أطيعونى وخلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن للذى سمعت منه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».

* والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و٦٢٩م، وجلى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمى والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبى - صلى الله عليه وسلم - يفتح لها الأبواب ويعد لها المواقع فى منظومة دولته سياسياً ودينياً واقتصادياً ومجتمعياً.

* وكان اعتراف النبى لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكى الحرام، وبالعمرة، وبالنسق الدينى الجاهلى المتعلق بالكعبة، بلاغاً واضح المعانى والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة، ومن ثم تصرف النبى فى الحديبية بحنكة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسى، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة، بينما كان عروة بن مسعود يعود يعلن لقريش قبيلة النبى

أن ولدهم قد أصبح ملكاً لا تدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكاً مثله قط، وهى مجموعة المتوافقات التى أدت خلال الهدنة، بل خلال اشهر قليلة، إلى اندفاع العربان وجند قريش إلى سيد الدولة اليثربية، يعلنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندى الحاذق الذى سيصبح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذى لا يشق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرتاريا العربية.

* وتأسيساً على ما أدت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتماً رسمياً، ليصدق به على رسائله الرسمية للعالم، التى بدأت تفد على الملوك والقياصرة ممهورة بخاتمه، يدعوهم فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعوث الأولى من العرب إلى الدنيا تعلن النجاشى والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

* أما النتيجة الأهم إطلاقاً وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهى أن النبى قد تمكن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أى تحرك معاد تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجه النبى إلى مركز القوة الصاعد، إلى خيبر.



فتح خيبر

«الله أكبر
خربت خيبر
إنا إذا نزلنا بساحة قوم
فساء صباح المنذرين»

[النبى - صلى الله عليه وسلم -]

﴿وأثابهم فتحاً قريباً... وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ (الفتح ١٨، ٢١).

وهذا وعد آخر بفتح قريب، تليه فتوح أخرى مقبلة لم يتمكن المسلمون منها، لكن الله يمهدها لهم، فيحيط بها ويجهزها للفتح، حيث يبدو أن الأتباع لم يعجبهم ما حدث بالحديبية، ولم يدركوا مرامى العهد البعيدة، وأفصح بعضهم عن أن النبى لم يحقق لهم فى الحديبية ما وعدهم به سلفاً، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحاً عظيماً، فإن رؤاهم قصرت عن تتبع البصيرة النبوية وهى تعمل فى الآتى، ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعد جديد، يعوض المسلمين عن فتح مكة ويثيبهم بدلاً عنها بفتح آخر قريب، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها، ومن ثم عقب الحكم على الآيات بقوله:

أخبرنى عبد الرحمن بن أبى ليلى فى قوله: وأثابهم فتحاً قريباً، قال: خيبر، وأخرى لم تقدروا عليها أحاط الله بها، قال: فارس والروم[٥٥].

وعقب موسى بن عقبة بقوله: «لما رجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهى التى وعده الله إياها». أما مروان والمسور فقد قالا: «انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة»[٥٦] وهو الأمر الذى يفصح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يعوضهم بغنائم فورية، عوضاً عن أملهم الطموح فى ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقى وهو ينقل عن الرواة القول:

انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر،

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها

فعجل لكم،

هذه خيبر[٥٧].

وفى الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بثقلها، تلك القبيلة الفزارية التى يقودها الطماع الأحمق المطاع، الذى خذل فى اتفاقه السرى بالخندق، وتم التخذيل بين الأحزاب دون أن يجنى لطمعه مغنماً، وعاد صفر اليدين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقع القائد صائباً، فقد جهزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتظاهر خيبراً ضد الجيش الإسلامى، وهنا ، وما أن تحرك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مؤخرة جندهم ضجيجاً خلفهم، فى بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعاً إلى ديارهم، خوفاً على أموالهم ونسائهم وذراريهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تحيطنا علماً شافياً وواضحاً بحقيقة ما حدث فى ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها[٥٨].

---

(٥٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٣.

(٥٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٣.

(٥٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٥٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٦، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى، ج ٤، ص ٤٠.

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لزمت ديارها بعد خطة مقدرة ومحكمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليثربي في تقدمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلاً ويكمن نهاراً، يستخفى حتى يبغت خيبر فجأة فى حصونها وصياصيها. ويصل جند الله سارين دون صوت عند سدول الليل، يحيطون بالحصون دون أن يصدروا صوتاً أو يشعلوا ناراً، حتى تبدأ خيوط الفجر تضئ المزارع حول الحصون، ويخرج مزارعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفئوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المتحركة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مزارعو خيبر الدوائر المحكمة تحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفزع صارخين نحو حصونهم:

محمد؛ والخميس معه.

ليجاوب صراخهم الفازع هتاف النبى فى رجاله معلناً بدء الهجوم

الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين(٥٩).

كانت خيبر أرض زرع وسط بدو جياع، خبرت غدر العربان وإغاراتهم المتكررة وقت نضوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد ينهبون عرق الشهور والتعب والجهد، وهو ما دعا الخيابرة إلى إقامة عدد من الحصون القوية والصياصي، لصد تلك الغزوات البربرية، لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامى المنظم، أثبتت أنهم ليست مانعتهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصناً حصناً، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابى محمود بن مسلمة، عندما ألقت عليه امرأة خيبرية رحاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق، ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذى يليه، حتى يتحصنوا جميعاً فى الحصون الخمسة الباقية: الأخبية والوطيح والسلالم والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابرة أنهم باتوا فى أمان، فيرفضون النداء المردد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يوماً من الحصار، انتهى بعدها النبى إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة فى بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لدك الحصون، ذلك السلاح الذى كان قاصراً على

---

(٥٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٧، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٠، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المتحصنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكاً، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما أن يشاهد المتحصنون شكل العمل وطبيعته، ويدركون أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب، حتى يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبى الحقيق، حاملاً للنبى صلحاً على شروط صلح النضير: أن يغادروا بلادهم، ويتركوا للنبى أموالهم وحصونهم وأرضهم، لا يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس، فقط نظير أن يحقن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دماءهم، ووافق النبى، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدى وهو يروى:

> فنزل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ما كان على ظهر الإنسان، يعنى لباسهم[٦٠].

ثم يردف:

> فنزلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بنى النضير المتقدم ذكرها، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة[٦١].

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الشروط شرطاً آخر، حول الأموال حين قال:

> وبرئت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئاً.
>
> فصالحوه على ذلك[٦٢].

أو ما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، فى سؤال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للزعيم الخيبرى المرعوب كنانة بن أبى الحقيق، وأخيه الربيع:

> أين آنيتكما التى كنتما تعيرانها أهل مكة؟

ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول متلعثماً: «هربنا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شىء»، فيرد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

---

(٦٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٦١) نفسه: ص ٢٠٤.

(٦٢) الموضع نفسه.

إنكما إن كنتما تكتمانى شيئاً فاطلعت عليه، استحللت دماءكما وذراريكما.

فقالا: نعم[٦٣].

وهنا نعلم أنه كان شركاً وقع فيه الزعيمان، حيث نعلم أن النبى كان يعلم سلفاً بأمر كنز عظيم. بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد: إن الله قد دل رسوله على ذلك الكنز[٦٤]، بينما يوضح لنا ابن هشام فى سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، فى قوله:

أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل من يهود فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

إنى قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهو ما دفع النبى للشرط السابق ذكره، والذى أورده ابن هشام فى قوله:

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنانة:

أرأيت إن وجدناه عندك؛ أأقتلك؟

قال: نعم[٦٥].

وهنا نتابع من ابن سعد، الذى لم يعلم بأمر ذلك اليهودى الذى باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبى بأمر الكنز خبراً إلهياً، فنجده يقول فى روايته متابعاً:

فدعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك، فانظر نخلة مرفوعة، فأتنى بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال[٦٦].

والآن وقد كُشف خداع الرجلين، وجىء بكنزهم للنبى، توجه النبى إلى كنانة مرة أخرى يسأله ما بقى من كنزه، فأنكره،

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:

---

(٦٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١.
(٦٤) نفسه: ص ٧٧.
(٦٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.
(٦٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١

عذبه حتى تستأصل ما عنده.

فكان الزبير يقدح بزند فى صدره، حتى أشرف على نفسه.

ثم دفعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة[٦٧].

وانطلق السيف الإسلامى يعمل فى المستسلمين، ليقتل منهم فى قول ابن سعد «ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبى الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسميناهم لشرفهم»[٦٨].

وكان تبرير تلك المقتلة واضحاً لكل ذى عينين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه فى قوله:

قلت: ولهذا، لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذى كان فيه أموال جزيلة،

تبين أنه لا عهد لهم!!

فقتل أبى الحقيق، وطائفة من أهله، بسبب:

نقض العهود والمواثيق!!

.. فقتل رسول الله ابنى أبى الحقيق

وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب

وسبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءهم وذراريهم وأموالهم

بالنكث الذى نكثوه

وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا:

يا محمد دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل[٦٩].

---

(٦٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٦٨) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٧.

(٦٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

وهكذا، وبعد المقتلة التى نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر، رأى من بقى منهم أن يقترحوا على النبى أمراً آخر، هو أن يظلوا فى أرضهم يزرعونها ويفلحونها ويستخرجون خيراتها، بدلاً من مغادرتهم وخراب الأرض وبوارها من بعدهم، على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دينية، لكن مع تبعية خراجية، يعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم، مع شرط تنبيهى من النبى، يقول لهم مردفاً:

على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم[٧٠].

وبانتهاء المعركة، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال، فأما الأموال التى أوجف عليها المسلمون بالخيل والركاب، فقد قسمت بينهم، أما التى استسلمت وعقدت الاتفاق، فعائدها كان خاصاً لرسول الله، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله.

ويؤكد لنا رواة السير والأخبار جميعاً، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ، ففشت السبايا الخيبريات فى المسلمين، إلى الحد الذى دفع النبى لوقف اغتصاب النساء الحبالى، يناشد رجاله بندائه الراقى الرحيم:

لا يحل لامرئ أن يسقى ماءه زرع غيره[٧١].

وكان النبى قد قتل كنانة بن أبى الحقيق، زوج صفية بنت حيى بن أخطب سيد النضير، وكان قد سبق وقتل أباها حيى فى مذبحة قريظة، لذلك، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتى هنا واضحة لا تحمل فى خبرها لبساً، فتعلمنا أن النبى لم يعلم بجمال صفية بنت حيى زوجة كنانة، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جميعاً حول رواية أنس بن مالك الذى قال:

قدمنا خيبر، فلما فتح ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحصن،
ذُكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب
وقد قتل زوجها
وكانت عروساً
فاصطفاها لنفسه[٧٢].

---

(٧٠) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٦.

(٧١) نفسه: ص ١٧٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.

(٧٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧..

وقد قدرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين، ـ صلى الله عليه وسلم ـ، رغم أنها بنت عدو الله حيى بن أخطب، الذى حزب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبى الحقيق، الذى نقض العهود والمواثيق، بعد اتفاقه السلمى مع النبى، وهو ما يشرحه أنس فى قوله:

جُمع السبى

فجاء دحية الكلبى فقال: يا رسول الله أعطنى جارية من السبى،

قال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حيى،

فجاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال:

يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك!!

قال: ادعوا بها، فلما نظر إليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال: خذ جارية من السبى غيرها[٧٣].

وفى رواية أخرى أن دحية الكلبى صديق النبى، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت فى قوله: «وقعت صفية فى سهم دحية، وكانت جارية جميلة، فاشتراها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعة رؤوس، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها»[٧٤].

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ فى سد الصهباء فى الطريق إلى يثرب، وضربت للنبى وصفية قبة، ظل فيها النبى معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبنى بها..

وكانت التى جمّلتها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك[٧٥].

ويروى البيهقى:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً قريباً من قبته.

---

(٧٣) نفسه: ص ١٩٨.

(٧٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٤.

(٧٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٢، ٢١٣.

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مفصحاً عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،

وذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها

وعامة عشيرتها،

فخفت لعمر الله أن تغتالك(٧٦).

وهو الأمر الذي يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبي في قولها: «كان رسول الله من أبغض الناس إليّ، قتل زوجي وأبي، فمازال يعتذر إليّ ويقول: إن أباك ألّب عليّ العرب.. حتى ذهب ما بنفسي»(٧٧).

أحداث في خيبر:

وفي خيبر أحداث حدثت، تفصح عن كثير مما في النفوس من مكامن، وتكشف عما في العقول من مفاهيم، فهذه صفية تصفو للنبي ويزول ما بنفسها من بغض له، لتخبره وهو يبني بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها في قص البيهقي علينا:

> أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبني بصفية.. ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال:
>
> تمنين ملك يثرب؟!
>
> أو
>
> تمنين هذا الملك الذي بالمدينة؟!
>
> فأعجب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ برؤياها(٧٨).

---

(٧٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

(٧٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠١.

(٧٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

وهو الرد الذى يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبى كملك على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آت، فى صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية:

ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً؟!(٧٩)

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يوصف رؤيا صفية فى قوله: «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضى الله عنها وأرضاها»(٨٠).

ومفهوم كنانة بن أبى الحقيق، ومفهوم صفية بنت حيى عن النبوة بحسبانها ملكاً، هو الفهم الطبيعى الناشىء عن تأسيس دولة للعرب فى يثرب، وهى رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن تعاشر النبى وتعرف معنى النبوة الحقة، فهى لا تعلم حسب مأثورها الدينى سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحدا قبائل البدو فى دولة تأسيسية فى فلسطين، وفى ضوء هذا الفهم يلتقى تجريد الكتائب والجيوش مع أساليب ملوك التوراة، وهو الأمر الذى ترك فى نفسها فى مبدأ الأمر بغضاً شديداً لذلك الملك الذى حلمت به، وزادها بغضاً ما رأته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروى ابن هشام مشهداً لاشك كان ذا أثر عميق فى نفس صفية، حيث يقول نقلاً عن ابن إسحاق:

> ولما افتتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القموص، حصن بنى الحقيق، أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفية بنت حيى بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذى جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية، صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: أغربوا عنى هذه الشيطانة.
>
> وأمر بصفية فحيزت خلفه،
>
> وأبقى عليها رداءه.
>
> فعرف المسلمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟(٨١)

---

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٨٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٨١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

وهكذا كان الرسول ينبه هذا وينهى ذاك، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبو هنا وتطفو هناك، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذى لم يكتف بقتل كنانة زوج صفية ثأراً بأخيه محمود الذى ألقيت عليه الرحى، حيث يقول الواقدى: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز علىّ يا محمد، فقال محمد: ذق الموت ذق، كما ذاقه أخى محمود»، وظل الرجل على حاله يعانى لولا أن مر عليه الإمام على ففصل رأسه عن جسده رحمة به[٨٢].

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا فى أمر صفية، هل ظلت محظية ضمن جوارى الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد بنى بها ولم تكمل عدتها، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوجها، وهو ما جاء فى الشاهد: «قال حماد، قال عبد العزيز لثابت: يا أبا محمد، أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ قال أصدقها نفسها، فحرك ثابت رأسه كأنه صدقه»[٨٣] بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقاً، وأن هذا الصداق كان عتقها.

ولا يمضى من الزمن هنيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلل، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم، وهو ما جاء فى رواية تقول:

> دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صفية. ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بنى سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً وانتهش منه»[٨٤].

ويلوك النبى نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان»، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبى بآثار السم القاتل تسرى فى بدنه، فيحتجم يومئذ، وقد حجمه مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة، وبقى رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى، فتوفى رسول الله شهيداً، قال ابن هشام: الأبهر هو العرق المعلق بالقلب.. فكان المسلمون يرون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مات شهيداً، مع ما أكرمه به الله من النبوة»[٨٥].

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتأريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من

---

(٨٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١٦.
(٨٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٥.
(٨٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ٢١١.
(٨٥) الموضع نفسه.

قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبي لم اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قالت: «قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي.. قال القاضي عياض: واختلفت الآثار والعلماء، هل قتلها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم لا؟»[٨٦].

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوز منهجهم الإعجازي، في إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجاً لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر في رواية ابن كثير حيث يقول:

> فترامو.. حتى أصاب نبلهم بنان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد[٨٧].

من غير أن يدرك ذلك الراوية أن هذا الحل العملي، كان بديلاً مناسباً عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان في سويعات أن يرمي النبي تلك الحصى على كل حصن لينتهي الأمر بكل بساطة، ويؤمن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يذكرنا بحصى بدر الإعجازية.

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبرز وسطها رواية هي بحق من اللطائف، لتعبر عن الجزاء الفوري للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره متعدداً في كتب الأخبار عن الراعي الأسود الذي أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقتل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذي أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لم أعرضت عنه؟ قال: **إن معه الآن زوجتيه من الحور العين**»[٨٨].

وبينما الجيش في الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغتة على وادي القرى، وفي أربعة أيام أنهى الأمر وقسم غنائم وادي القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادي على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويعطون نصف منتوجها ليثرب، وبلغ ذلك يهود تيماء وفدك، وبينما يعرج عليهم أتوه هم بالطاعة، يصالحونه على ذات الشروط دون حروب[٨٩].

---

(٨٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٨٧) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ٢٠٠.

(٨٨) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦.

(٨٩) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ٢١٩، انظر أيضاً البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٦، ١٨٨.

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمالى، الضاربة على مواطن الخصب، لتنجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتؤوب لسلطان الدولة العربية معلنة الخضوع طوعاً، ليبرز هيكل الدولة واضحاً فى قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوى الابتدائى، الذى كان سائداً حتى غزوة خيبر.

ثم يأتينا خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المنتصر قافلاً نحو يثرب، نسمعه من الواقدى عن أم عمارة عندما قالت:

> سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجرف وهو يقول: لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء، قالت: فذهب رجل من الحى فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضن بزوجته أن يفارقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها فعصى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأى ما يكره[٩٠].

ويتأكد ذات المعنى فى رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

> لما نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعرس، أمر مناديه فنادى: لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلا[٩١].

ويبدو أن الأمر كان متكرراً مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

> حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله، إلا نصب له يوم القيامة فقيل له: هذا خلفك فى أهلك، فخذ من حسناته[٩٢].

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيباً فى الناس يقول مهدداً متوعداً بالنكير:

> ألا كلما نفرنا غازين فى سبيل الله، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس يمنح أحدهم الكثبة؟
>
> أما والله إن يمكننى الله من أحدهم، لأنكلنه عنه[٩٣].

---

(٩٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٩.

(٩١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ١، ج ١، ص ٢١٨.

(٩٢) أبو داود: السنن، ج ٢، ص ٨٠٧.

(٩٣) صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٣١٩.

كانت تلك الأحداث تجرى بين خيبر ويثرب، بينما مكة تحاول أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمى قادماً من عند النبى، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالاً له عندهم، ويحكى الحجاج قائلاً:

ولم يكونوا قد علموا بإسلامى، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز، قلت.. هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمدا أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينونى على جمع مالى بمكة، وعلى غرمانى، فإنى أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك.

فقاموا فجمعوا لى مالى كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبى وعينه على قريش بالخبر الذى أتى به الحجاج بن علاط، فيهرول إلى الحجاج فزعاً، لكن ليهمس له الحجاج سراً:

احفظ علىَّ حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإنى والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم، يعنى صفية بنت حيى، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

وفى هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمراً، وأنه قد بات فى إمكانه أن يعلن اتباعه له جهراً، حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حلة، وتخلق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والله الذى حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه»[٩٤].

وقد وضع هذا الإعلان القاسى قريشاً ورجالها العقلاء فى موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذى هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولدهم وفخرهم بانتصاراته، لكن

---

(٩٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦، ٤٧.

المؤكد أن نصر خيبر قد قوبل بحماسة قومية انتشرت فى الفيافى مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المؤسسى لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثل فى قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجى وفر لها الأسس الزراعية المستقرة فى خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبى من مزينة وجهينة وبكر عندما دعاهم إلى الحديبية[٩٥]، فقد أخذوا درساً من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التى وزعت فقط على من حضر الحديبية[٩٦].

(٩٥) الواقدى: المغازى، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمى، بيروت، د. ت، ج ٢، ص ٦٢٠.

(٩٦) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩. ص ٤٢.

الباب الثالث

فـــتح الفتــوح

الإسلام وقاء

«الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم،
حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة»

[خالد بن أُسيد]

وهكذا أمنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكرى لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغانم، كان يتطلب دوماً إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند، ومن ثم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بنى فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذرارى والنساء، وينفل أبو بكر فتاة غاية فى الجمال للصحابى سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكى سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، فى قوله:

> إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو فى آثارهم، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيته على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلنى أبو بكر بنتها.
>
> فما كشفت لها ثوباً حتى قدمنا المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوباً فلقينى

> رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السـوق، فـقـال لى: يا سلمـة هب لى المرأة، فـقلت: والله يا رسـول الله لقد أعـجـبتنى ومـا كشفت لهـا ثوباً، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركنى حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى السـوق فـقـال: يا سلمـة هب لى المرأة، فـقلت يارسول الله والله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركنى، حـتى إذا كـان الغـد لقـينى رسـول الله فى السـوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك، قلت: يا رسول الله ما كشفت لها ثوباً وهي لك يا رسول الله.

ويشى إصـرار الرواية على أن سلمـة لم يكشف لهـا ثوباً، أنهـا سـتنتـهى إلى رسـول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهل مكة وفى أيديهم أسارى من المسلمين، ففـداهم رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بتلك المرأة»[1]. وفى هذه الإضافـة خلل واضح، حيث لم يكن فى ذلك الوقت تحديداً أى أسارى من المسلمين فى مكة، كما كـان العقد قد وقع بالحديبية فى هدنة مدتها من السنوات عشر.

وبعد سرية أبى بكر إلى فـزارة خـرج عـمـر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فـهرب الناس وعـاد عمر ورجـاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بنى مرة فى فـدك، ونزل بلادهم واستاق نعمهم لكن لتكر عليه قـبائلها ويقتلون جـميع أفرادها، ويهرب بشير بن سعيد إلى بيت يهودى يخفيه ويأويه ليعود بعد أيام إلى يثرب مستخفياً، فيعود النبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ليرسل عليـهم غالب بن عـبد الله الكلبى وأسـامـة بن زيد فى سـرية تالية، وهناك يدركون فرداس بن نهيك، فيشهر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن أسامة ورفاقه لا يمهلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه.

ويحكى أسامة يقول:

> فلما قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل.. فكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت يومئذ[2].

وهنا نجـد عودة إلى البدء، أيام كـانت الدعوة طازجـة فى مكة، تحمل للناس بشرى وسلامـاً،

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢١.
(٢) الموضع نفسه.

حيث يعود هنا الأمر يبرز بين العريان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيعلن الأعرابى شهادته بوحدانية الإله ليأمن على حياته وماله، ليصبح ذلك الإعلان فى زمن الهدنة إعلاناً صريحاً من سيد الدولة اليثربية، أنه يكفى للعريان الشهادة للإله بالوحدانية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله، ليصبح للشاهد الجوار والأمان، وتصبح شهادته توقيعاً معلناً على ميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطناً يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يصبح هو فرداً فى جنودها، وهى السياسة التى ستؤتى ثمارها خلال أشهر قليلة، أدت إليها مجموعة غزوات وسرايا جعلت للأمن سوراً بابه الإيمان، حيث يجتمع للنبى خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف محارب.

ولم يلحظ الأتباع فى مبدأ الأمر تلك العودة، لإيقاف الأطماع فى الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضر بالدولة بعد الاعتراف بها رسمياً ضرراً جسيماً، فتأتى سرية أبى حدرد لتؤكد عزم النبى على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها، تلك الشهادة التى تعنى توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهى السرية التى حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

> بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أضم فى نفر من المسلمين منهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، ومعه متيع له ووطب، فسلمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم ابن جثامة فقتله لشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحيا يقرع القاتل، ويؤكد خلل رواية أبى حدرد، حيث توضح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شىء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد منّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليتابع أبو حدرد قائلاً:

> فنزل فينا القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ (٩٤ ـ النساء)[٣].

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالى سريعاً يهرع، وآن أوان مغادرة أهل

---

(٣) نفسه: ص ٢٢٤.

مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفى بعقدها، لتثبت لكل العرب، أنها لازالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب، لكنها هذه المرة تحديداً كانت تعلم يقيناً أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هى تعلم أن جميع العربان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجارى، إنما كانت تنازلاً واضحاً ونقصاً فى السيادة لسيادة أخرى منافسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد، فلم يكن المعتمرون أفراداً فرادى، إنما جيش كبير هو فى النهاية ذلك الجيش المعادى الذى بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهر نحو السيادة الدينية، حيث يخبرنا ابن سعد أن عدد المعتمرين قد وصل إلى الألفين عدداً[4]، وكل تلك المعانى تفصح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقى فى مكة فضولاً وتطلعاً ورصداً، وأن من بقى منهم فى مكة:

صفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال:

رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة[5].

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العربان، أمر النبى رجاله قائلاً:

اكشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف

وهو ما عقب عليه البيهقى موضحاً الداعى له:

ليُرى المشركين قوتهم وجلدهم..

فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت[6].

وتصعق قريش مأخوذة، عندما ترى النبى، ذلك الذى حاصرها اقتصادياً وقتل أفلاذ كبدها، وفكك عرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويهل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة، وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم، فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها، وهو ما جاء واضحاً فى رواية ابن هشام وهو يروى لنا المشهد النبوى داخل مكة بقوله:

---

(٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧.

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

ثم استلم الركن؟!

وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه؟!

.. واستلم الركن اليمانى؟!.

ومشى حتى يستلم الركن الأسود؟!

ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف

ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول:

> **كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحي من قريش.. حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها[٧].**

ومن ثم لزم النبى شعائر قومه، لكنه توجها بالإعلان الجديد، واحتواها وتضمنها فى الأداء العلنى لدولته النبوية ممثلاً فى الأذان الإسلامى:

> ولما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نسكه فى القضاء، وداخل البيت لم يزل فيه، **حتى أذن بلال الظهر من فوق الكعبة**.

لم تسجل صحيفة الحديبية فى بنودها ذلك، لكن بلالاً صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبى العلنى، ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها: أن محمداً رسول الله. لكن ليعقب من بين الواقفين بعيداً عكرمة بن أبى الحكم:

> لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

ليثنى خالد بن أسيد:

> الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة[٨].

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يدخل السرور إلى قلب ابن أخيه نكاية فى الملأ الأموى، فيزوجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، لينكحها وهو محرم، وهو ما تأكد فى قول ابن عباس «إن

---

(٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٩.
(٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث وهو فى سفره ذلك وهو حرام، وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب.. تزوجها وهو محرم»[٩].

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذى دخل مكة يحجل أمام رسول الله متوشحاً سيفه يطوحه يميناً ويساراً، يسب قريشاً، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مهدداً بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبى، وهو يرتجز قائلاً:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

أنا الشهيد أنه رسوله

قد أنزل الرحمن فى تنزيله

فى صحف تتلى: رسوله

فاليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقتله

ويذهل الخليل عن خليله[١٠]

فيأمره النبى زيادة فى النكاية، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله

نصر عبده

وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده[١١]

وهو ما عقب عليه البيهقى: «وكان يكابدهم بكل ما استطاع»[١٢]

وبانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش، ليقولوا للنبى:

---

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

(١١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧.

(١٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا

فيرد النبى بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟

فيجيبونه الإجابة المعبرة عن مكنونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا(١٣).

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين معبراً عن إمكان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة. فيقول:

يا عاضا ببظر أمه

أأرضك وأرض أمك هى دونه(١٤)؟

لكن ليتدخل سيد الخلق المطهر، ويسكت سعداً، ويفى بالعهود والمواثيق، مكتفياً بذلك الإعلان العملى السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتمار المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويصيب أنعامهم وسبي منهم، لكن هذا الجمع الهوازنى كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدم وفدهم على النبى يعلن إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبى كل أملاكهم وسباياهم، فى بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم محدد المعانى.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتغير على قضاعة بذات أطلاح، المستندة على أسنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاعة الشامية ما كانت ترى فيهم سوى كرة عربية مثل كرات عهدتها على حدود الإمبراطورية، بل وتعمل سيوفها فى أفراد السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يعلن الرسول أنه قد آن الأوان لمهاجمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التى لم يقدروا عليها وأحاط بها الله.

---

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.
(١٤) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

وعلى رأس السرية يوفد النبى زيداً بن حارثة فى ثلاثة آلاف مقاتل، وكان النبى يعلم جيداً ماذا يواجهون، ويعلم سلفاً النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتى، ولعلمه - صلى الله عليه وسلم - بما هو مقدم عليه قال فى رجاله: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليرتضى المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم(١٥).

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبى دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته، فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والموالية لها، وهو الهول الذى يصوره أبو هريرة قائلاً:

شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به(١٦).

وكان طبيعياً أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيراً من مقاتلى المسلمين المقدمين، حتى تناول خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقى من الجيش الذى عاد ممزقاً إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه فى وجوههم يقولون:

يا فرار، فررتم فى سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفرار،

لكنهم الكرار إن شاء الله.

إعلاناً عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرات آتية وكرات، وأن الوعد النبوى قائم كعلم يرفرف لا يتراجع، يردد فى مسمع العريان: «والذى نفس محمد بيده، لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذى ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء، بعد أن رآهم النبى فى رحلة سماوية فى رؤياه، حيث اطلع عليهم فى فردوس الرحمن «فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

---

(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤١.

(١٦) الموضع نفسه.

هذا جعفر بن أبى طالب

وزيد بن حارثة

وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفوا شرفاً آخر، فإذا بنفر ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هـذا: إبراهيم

وموسى

وعيسى

عليهم السلام، وهم ينتظرونك»(١٧).

وإعمالاً للوعد لا ينتظر النبى طويلاً، فقط يغير فى التكتيك، فيرسل على العربان المتحالفين مع الروم من بلى وقضاعة سرية يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيمده النبى بأبى بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأن الأوان بعد فيعودون دون أية مغانم أو فتوح(١٨).

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تعتبر غزوة مؤتة هزيمة فى نظر عرب الجزيرة، ولا عدّها النبى كذلك، ولا حتى قريش، لأن مجرد خروج العرب لمجابهة الروم، كان أمراً بعيداً حتى عن الأحلام، لقد كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم فى معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصاراً وحده وبحد ذاته.

---

(١٧) نفسه: ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠.

(١٨) نفسه: ص ٢٧٢.

مكة: فتح الفتوح

«والله يا أبا الفضل:

لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً»

[أبو سفيان]

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقرى زمناً إلى ما قبل الدعوة، لتطلعنا على السر وراء نقض معاهدة الحديبية قبل موعدها بزمن طويل، فتحكى لنا عن مخاصمة ثأرية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر، كان سببها أن رجلاً من بكر خرج تاجراً، فلما توسط ديار خزاعة، عدوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارته، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بثأرها برجل من خزاعة. فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليطيح بالرؤوس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلى، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب[19]، وهنا تأتى الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول فى عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول فى عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة فى حلف محمد، وهو الأمر الذى لم يكن جديداً ولا خافياً، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها، ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعاً، بعدما أقصاهم قصى الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها

(19) ابكار السقاف: نحو آفاق... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٥٥٥ .

لهم، ومن ثم كان منطقياً تماماً، أن تدخل بكر فى حلف قريش.

وإبان هدنة الحديبية، ولم يمض على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مقاتلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الديل أحد بطونها فرصة من خزاعة، لتثأر لرجلها الديلى، فيطارد بعض رجالهم خزاعياً عليل القلب مفئوداً اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يدعى تميم، ولما ركض الرجلان أمام مطارديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميم قائلاً: «.. يا تميم انج بنفسك، فأنا والله لميت، قتلونى، أو تركونى، لقد أنبت فؤادى»، وينطلق تميم، ويموت منبه، وتضيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يفصح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول: إن الأمر قد هاج بين القبيلتين، وأن بعضاً من قريش أمدّوا بكراً بالسلاح، وربما قاتلوا معهم متخفين[٢٠].

هذا بينما هناك رواية أخرى تؤكد أن من أشعل أوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيون، وذلك فيما رواه البلاذرى فى قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عهده وعقده، رجلاً من كنانة وكانوا فى عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فوثب عليه وشجه، فاقتتلت خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بنى كنانة وخرج وجوههم يقاتلون متنكرين»[٢١].

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعى المفئود، فإن الموقف قد تصاعد بموته، فخرجت خزاعة فى أربعين راكباً وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعى، ليقدموا على النبى فى يثرب، وهو جالس فى مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعراً تحريضياً طالباً نصرة النبى فى قصيدة طويلة جاء فى بعضها:

يارب إنى ناشد محمداً	حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والداً	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتداً	وادع عباد الله يأتوا مددا

وينصت سيد الخلق للرجل حتى ينتهى من قصيده الشاكية المستنصرة، ليقف النبى وسط الناس، ويجيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نُصِرت يا عمرو بن سالم[٢٢].

---

(٢٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٤، ٨٥.

(٢١) البلاذرى: أنساب الأشراف.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) نفسه: ص ٨٦.

ثم يلتفت إلى الناس، معلناً نصر بنى كعب من خزاعة قائلاً:

لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى

ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويشير إليها مردداً:

إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب

ويروى لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهى تتسارع فى قوله:

> وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى من حوله من العرب، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف.. ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم فليصم[٢٣].

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما يجرى، فتأخذها الرعدة، وترسل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان صخر بن حرب إلى زعيم يثرب، لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشاً لا دخل لها بثأر كنانة، وأن قريشاً على عهدها باقية، وبنود صحيفة الحديبية مستمسكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى ركبهم عائداً من المدينة، وينكرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث بهائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى يثرب، فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خطاه مسرعاً، مقرراً أنه سيمد العهد ويوطد العقد بين محمد وقريش.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التى تزوجها النبى بعد عودتها من مهاجرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبى فتطويه عنه فيقول: يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيبغت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبى، ويجلس أمامه، ويكلمه، ويكلمه، ويشرح، ويفصل فى بنود العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدها، ويظل الرجل يتكلم والنبى صامت لا يرد عليه بشىء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذى يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مخيف ومريب، فيقوم زعيم قريش يجرجر كرامته إلى بيت أبى بكر ينتظره ثم يكلمه، ليتوسط لدى

---

(٢٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٧.

النبى، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل، فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وانفعال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به..»، ولا يدرى الرجل أين يذهب، فيتذكر علياً، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبى يدب بين يديها، ليقول لعلى:

يا على، إنك أمسّ القوم رحماً، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لى عند رسول الله. فيقول له على: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مشيراً إلى طفلها يائساً:

يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهداً كبيراً لتكتشف أن الرجل يهذى فترد عليه:

والله ما بلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدعلى رسول الله.

ويسقط فى يد الرجل بعد أن سقط إعياء ليتوجه بالكلام قانطاً إلى على قائلاً: «يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى»، ولا يجد على ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً»، ثم يذكره بمكانته قائلاً: «إنك سيد بنى كنانة، قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك»، ويسأله أبو سفيان: «أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟»، فيرد على: «لا والله ما أظنه، لكنى لا أجد لك غير ذلك»، وينهض أبو سفيان يلملم كرامة كنانة المبعثرة ليدخل المسجد ويقف وسط الناس ينادى والعيون تتشظى لهباً حوله: «أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس»، وحتى لايسمع مايكره يخرج مسرعاً إلى بعيره ميمماً شطر مكة»[٢٤].

وما أن يغادر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً ربه والناس تسمع:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها.

ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مقاتل ينزل بهم مر الظهران، «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يدرون ما هو فاعل»، هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة متجهاً للمدينة، ليفاجأ بغتة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيردد قائلاً:

---

(٢٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٦، ٨٧.

واصباح قريش

والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة

قبل أن يستأمنوه

إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويحكى أنه أخذ بغلة النبى البيضاء، وخرج يجوس بها ليلاً حول الجيش قرب مكة، عساه يجد لمكة مخرجاً، فيسمع اثنين يتحاوران، يعرف فى صوتيهما أبا سفيان وبديل بن ورقاء، إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب، فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا ينادى العباس أبا سفيان، ويلتقى العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليسرع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الناس، واصباح قريش والله» فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فداك أبى وأمى»، فيقول له العباس: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله حى فأستأمنه لك».

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبى ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى لأضرب عنقه» لكن يقتحم العباس الخيمة مسرعاً قائلاً: «يا رسول الله إنى قد أجرته»، وهنا يقول النبى: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به»[٢٥].

وهكذا ينزل أبو سفيان فى ضيافة العباس، ضيافة هى إلى الأسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفاً منتظمة، فيذعر الرجل ويظنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أأمروا فى شىء؟» فيرد العباس «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة».

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مقاتل خلف الزعيم، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يتلو فينصتون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول:

ما رأيت كاليوم طاعة

قوم جمعهم من ههنا وههنا

---

(٢٥) نفسه: ج ٤، ص ٨٧ : ٩٠.

ولا فارس الأكارم

ولا الروم ذات القرون

بأطوع منهم له[٢٦].

لم يدرك الرجل حتى الآن وهو فى فهمه القبلى يرفل متخلفاً، أن هناك أمراً أعظم من القبيلة، قد جمع الناس من ههنا وههنا، وتوجه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبى فيفجأه بالسؤال:

ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

يقيناً يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقيناً، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم، فالله لا إله سواه، لكن هناك الأرباب الأدنى درجة من الإله، تلك التى تشفع للناس عند الله، ومن ثم كانت إجابة أبى سفيان:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك،

والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره

لقد أغنى عنى شيئاً بعد.

وهنا ينتقل النبى إلى الشق الثانى من السؤال، وهو الشق الذى لا شك سيشق على أبى سفيان، فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربى فى التعبير عن الدواخل ليرد قائلاً:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك

أما هذه

والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيرت، حتى أساليب التعامل العربية، لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثوى الأخير، فيسرع العباس ينبه الرجل بقوله:

---

(٢٦) نفسه: ج ٤، ص ٩٩.

ويحك

أسلم واشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله

قبل أن تضرب عنقك

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويسلم الرجل[٢٧]، ثم يقول متلعثماً محاولاً إظهار تمسكه بدينه وبهيبته:

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة، فيرد عليه بصوت عال ساخراً ضاحكاً ليسمعه:

نخـرا عليـها

فيقول أبو سفيان: «ويحك ياعمر إنك رجل فاحش، دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم»[٢٨].

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

كان الأمر إذن مقضياً، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها، حتى أن العباس رأى أن يجعل لزعيم قريش شيئاً بعدما لم يبق له شيء.

ويرى النبى أنه لا بأس من شيء لأبى سفيان فيقول: «نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ومن ثم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هى أوامر بحظر التجول عند دخول الجيش الإسلامى مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبى لعمه العباس: «ياعباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها»، ويأمر النبى باستعراض القوة، وبينما العباس مع أبى سفيان عند مضيق الوادى، يروى لنا:

مرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول: مالى وسليم، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالى ولمزينة، حتى نفدت القبائل..

---

(٢٧) الموضع نفسه.

(٢٨) الموضع نفسه.

ومر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء، لكثرة الحديد وظهوره فيها.. منها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المهاجرين والأنصار.

قال:

ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة

والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن،

قلت: النجاء إلى قومك[٢٩].

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يقسم النبي جيشه أربعة ألوية كبرى ليدخل مكة، ونقرأ الخبر عند أبي هريرة وهو يحكي:

فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر وأخذوا بطن الوادي، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتيبته، وقد وبشت قريش أوباشها.. فنظر فرآني، فقال: يا أبا هريرة، فقلت لبيك يا رسول الله، قال: اهتف بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصاري، فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيديه، إحداهما فوق الأخرى: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا، فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان:

أُبيحت خضراء قريش

ولا قريش بعد اليوم[٣٠].

ويهرع أبو سفيان بالفزع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته :يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم

(٢٩) نفسه: ص ٩٠.

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٥.

فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الجميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فقد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد(٣١).

وبدأ حظر التجول فى أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراده النبى أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديداً أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيى الإسلام ورجاله، ليستبيح بهم مكة حيث ثروات الملأ التى تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد الحسان اللائى يرفلن فى النعيم. ومن ثم تصور سعد بن عبادة أن ما صنعه الرسول من استعراض للقوة والعنف أمام أبى سفيان، أمر نهايته استباحة مكة فخرج يحمل راية القيادة أمام الجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثربى إزاء مكة، هاتفاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبى، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعراً يفصح عن المشاعر قائلاً:

يا نبى الهدى إليك لجا	حى قريش ولات حين حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القـ	ـوم ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظـ	ـهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغـ	ـيظ رمانا بالنسر والعواء
فلئن اقتحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء يا أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش	بقعة فى أكف الإماء(٣٢)

وهنا ينادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعداً ليأخذ منه الراية، ويعطيها لأكثر المهاجرين رأفة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلى بن أبى طالب، وخلف على دخل الجيش فى رسالة طمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون، لتتجرأ النساء فقط فيكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويقفن فى دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق

(٣١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.
(٣٢) نفسه: ص ١٠١.

الخمر يضربن بها وجوه خيل الفتح في دعوة واضحة تعلن الاستسلام للفاتحين، ويلخص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمي في قوله:

> قام نساء مشركات في وجوههن، يلطمن وجوه الخيل بالخمر، وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى جنبه أبو بكر، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان[٣٣]؟

لينطلق حسان مستجيباً يصف المشهد شعراً يقول:

تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء

فإن تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وقال الله لقد سيرت جنداً ... هم الأنصار عرضتها اللقاء

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة قد برح بها الخفاء

بأن سيوفنا قد تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء[٣٤]

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المرحبات، واللهم إلا مجنبة خالد بن الوليد، الذي لقيه بعض المتحمسين من شباب قريش في جمع عند الخندمة فقتل منهم ثمانية عشر وفر البقية، وعلم النبي فقال: ألم أنه عن القتال؟ فأجابه مجيب. خالد قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير، ومن المسلمين لم يقتل غير رجلين خطأ لسريانهما في أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهري، وخالد الأشقر الخزاعي[٣٥].

ودلف النبي إلى البيت، وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة، ذلك المفتاح التاريخي الذي انتقل عبر القرون من أياد إلى أيادي فوق دماء كثيرة، لينتهي إلى سليل البيت الهاشمي، ويمسك النبي بالمفتاح رمز السيادة جميعاً، ويفتح باب الكعبة ليصلي بداخلها ركعتين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذاً بعضادتيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلاً:

> لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

---

(٣٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٣٤) ابن هشام: السيرة في كتاب التسهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ٢، ص ٩٨.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، **فهو موضوع تحت قدمى هاتين**، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...﴾ (وقرأ الآية كلها).

يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد:

خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدعو النبى عثمان بن طلحة، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بنى طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم»، بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد مهيضاً ضعيفاً فى بداية دعوته بمكة، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملأ القرشى من السادة ليطالع ما بداخلها، فمنعه عثمان بن طلحة ورده رداً غليظاً، ونال منه، ولا شك يتذكر الآن وهو يستلم المفتاح من محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أصبح سيد السادة، ما سبق وقاله له محمد يومذاك: «يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى يوماً، أضعه حيث شئت»، ولا شك أيضاً أنه لم يزل ذاكراً بقية الحوار عندما أجابه: «لقد هلكت قريش يومئذ وذلت» فرد عليه النبى: «بل عمرت وعزت يومئذ»[٣٦]. وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق.

ثم ينادى النبى عمه العباس بن عبد المطلب ليقيمه كما كان على منصب السقاية قائلاً: «أعطيتكم ما ترزأكم ولا ترزؤنها»، ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعى ويأمره **بتجديد أنصاب الكعبة**، ثم يأمر بلال بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر، ليرفع شعار دولة الإسلام مؤذناً به، بينما يردد النبى: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، وكانت بنت أبى الحكم تردد قولاً آخر وهى تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسنؤديها، ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل الأحبة»[٣٧].

---

(٣٦) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣١.

(٣٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٩، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٤.

وبعدها خرج النبى إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب فى يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك، ورأى فى سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزيّداً ورواية ضعيفة[٣٨].

وبعدها يدخل النبى إلى قبة بنوها له، وهناك يصدر أوامره بقتل نفر سماهم بالاسم، حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، منهم جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء النبى، فقتلت واحدة واستؤمن للأخرى من النبى فعفا عنها، وسارة وهى جارية كانت تؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استؤمن لها بدورها، والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها، وعبد الله بن خطل الذى أسلم فأرسله النبى يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركاً، وقد قتله سعيد بن حريث، ومقيس بن صبابة الذى ذهب إلى يثرب مسلماً، ثم قتل أنصارياً ثأراً لأخيه ثم عاد إلى قريش مشركاً، وقد قتله نميلة بن عبد الله، وعكرمة بن أبى جهل، وقد جاءت به امرأته للنبى فاستأمنته له[٣٩].

كذلك صدر الأمر النبوى بقتل الشاعر عبد الله بن الزبعرى السهمى؛ لأنه كان ممن يهجو النبى بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومى زوج أم هانىء بنت أبى طالب إلى نجران، وهناك أقام هبيرة مشركاً حتى مات، وعاد ابن الزبعرى إلى النبى معتذراً متحبباً بقصائد المديح، فعفا عنه، كما صدر الأمر بقتل وحشى الحبشى لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبى فى أحد، لكنه جاء للنبى معتذراً مسلماً فقبل منه، كذلك قبل النبى اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان[٤٠].

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبى سرح، لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحى للنبى، ثم ارتد إلى مكة مشركاً، وقد جاء به عثمان إلى النبى يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير راوياً: «فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا - حين رآنى قد صمت - فيقتله؟! فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبى لا يقتل بالإشارة»[٤١].

---

(٣٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٠.

(٣٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٢، ٩٣، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٠٤.

(٤٠) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٤١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩٦.

وتقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحداً من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبي سرح نقمة عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصاري حاضراً، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبي للأنصاري: «هلا وفيت بنذرك؟ فقال: يا رسول الله وضعت يدي على قائم السيف أنتظر منك أن تومئ لي فأقتله، فقال النبي: ليس لنبي أن يومئ»[٤٢].

ووسط زخم الأحداث، وبين الحشد المتجمع حول قبة النبي - صلى الله عليه وسلم - جاء أبو بكر بشقيقته، التي كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة اللائي خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبي، وأمسك أبو بكر بيد شقيقته ينادي جند الله: «أنشدكم الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد، فقال لأخته: أي أخية، احتسبي طوقك، إن الأمانة في الناس اليوم لقليل»[٤٣].

وتنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلاً منها بثأر قديم، وهنا يغضب سيد الخلق ويقف ينادي في الناس:

يا أيها الناس:

> إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل[٤٤].

وهكذا، وقفت الأنصار دهشة، كما وقفت قريش أيضاً مأخوذة، فالنبي يكف أيدي الأنصار عن مكة، ويكف أيدي الناس عن بعضهم البعض، ويعلن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويطلق أهل مكة دون شروط، ويمارس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر الأسود وتقديسه، لتتساءل الأنصار متوجسة بالهواجس عما سيئول إليه الأمر، وهل من الممكن للنبي بعد أن تحرك رحمة لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله -

---

(٤٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٢.

(٤٣) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩١.

(٤٤) نفسه: ص ٩٤، ٩٥.

صلى الله عليه وسلم ـ : «معاذ الله، إنى عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: «والله ما قلنا الذى قلنا، إلا للضن بالله ورسوله»[٤٥].

وبعدها يصعد النبى إلى الصفا، لتقف مكة فى طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليلقى كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومبايعة الرسول عليهم سيد أو رسولاً، بينما يجلس عمر ابن الخطاب أسفل مجلسه «يأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله»[٤٦].

---

(٤٥) نفسه: ص ٩٥، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

«اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»

[النبى - صلى الله عليه وسلم -]

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب الوسيطة جميعاً، تلك التى كانت قائمة فى فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء لمن هم فى الأرض من عباده، وسقط عمود أساسى من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة وبالتجارة، حيث كانت تلك الأرباب أرباباً للقبائل الضاربة فى بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذباً لأتباعها نحو المركز التجارى المكى، لمزيد من الرواج التجارى، وإثباتاً لسيادة الإله المكى الأعلى السماوى على بقية الأرباب، بما يحمل ضمنياً التسييد القرشى على بقية القبائل. ومن ثم سقطت الوساطات ودمرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذى جاء تدميراً للرموز القبلية المتعددة وصهر تلك القبائل جميعاً فى منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من أحد إلا بإذنه، وقد أذن بذلك لصفيه النبى القرشى كشفيع أوحد، لتنتقل حالة التشتت القبلى الساعى نحو التوحيد بتماثيل متجاورة فى الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات فى شخص سيد أوحد من قريش هو النبى عليه الصلاة والسلام، لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم، فينوب عنها جميعاً سيد الخلق سيداً للعرب وشفيعاً أوحد للإله الأوحد فى الدولة المتوحدة الموحدة.

وإعمالاً لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة فى محيط الجزيرة،

وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها فى ناحية نخلة، ذلك الصنم الذى اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر، ليفكك بذلك هذا التحالف القبلى السابق بين تلك القبائل ويصهرها فى منظومة الدولة.

وتروى لنا كتبنا الإخبارية أن خالداً انتهى إلى العزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مقدسة، ورجع إلى النبى، لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تحاول التأكيد على ما كان وراء العزى من قوة غيبية، لكنها قوة ضعيفة مخيفة شيطانية، فتسوق رواية تحكى أنه بعد عودة خالد إلى النبى سأله النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما رأيت؟ فيرد أنه لم ير شيئاً، فيأمره النبى بالعودة مرة أخرى إلى العزى، ولا نتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهى تؤكد أن النبى كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فيعلوها خالد بالسيف وهو ينادى: ياعزى كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك، ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فينكشف له مافى البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبى، ليعقب الرسول قائلاً: تلك العزى ولا تعبد أبداً(٤٧).

ويعود النبى فيرسل خالداً فى سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ الإسلام وقاء وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيعلن النبى تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله، لكسره تلك القاعدة الأساس فى بناء الدولة، حيث خرج خالد برجاله المقاتلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعاً فى المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بنى جذيمة، وإعمالاً لمبدأ الإسلام وقاء يؤكد ابن كثير المعنى ذلك فى قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة.. بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب»(٤٨).

ويروى الطبرى أن بنى جذيمة ما أن رأوا خالداً حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح

فإن الناس قد أسلموا(٤٩).

وهو النداء الذى يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعى الشعور بالأمان ووضع السلاح، ويعلمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفاً قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح فى الحوار الذى ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟ قالوا:

---

(٤٧) نفسه: ص ٣١٤، ٣١٥.

(٤٨) نفسه: ص ٣١١.

(٤٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

مسلمين قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوه، فقال لهم: استأسروا، فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى أصحابه»[٥٠].

وتطفر هنا إشارة لا تفوت قارئ مدقق، حيث تجمع كتب الأخبار أن بنى جذيمة عندما رأوا خالد بن الوليد، صرخ أحدهم واسمه (جحدم) صرخة الفزع ينادى قومه محذراً الاستجابة لخالد:

يا بنى جذيمة إنه خالد

والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار

وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق

والله لا أضع سلاحى أبداً.

فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم إن الناس قد أسلموا، ووُضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم»[٥١].

لكن يبدو أن (جحدم) هذا كان ذا وعى نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينس أبداً ذلك الأمر الذى دعاه للفزع عندما رأى خالداً، ويبدو أنه الأمر الذى لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج لبنى جذيمة، ذلك الأمر الذى يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض جذيمة قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

«وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن الحارث بن زهرة، وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجاراً إلى اليمن.. فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر - كان قد هلك باليمن - إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عوف، والفاكه ابن المغيرة، فهمت قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب»[٥٢].

---

(٥٠) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٩.
(٥١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١١.
(٥٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١١.

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأراً عند بنى جذيمة، بعمه الفاكه بن المغيرة، ولم يثق الرجل فى أن الإسلام قد غير شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه موقنين من السلامة فى النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العربان وطلقاء قريش فقد نفذوا الأمر على الفور، واستحر القتل بليغاً فى الأسرى.

وفى مقتلة مسلمى جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب رائعة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى إذ يقول: «وأدركنا الظعن - النساء - فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وضىء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم فى خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بى الظعن فى أسفل الوادى ثم تقتلونى، قلنا: نفعل، فعارضنا الظعن فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمى حبيش على فقد العيش، فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، قال: سلام عليك دهراً وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثاً وتراً، فقال:

إن يقتلونى ياحبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
فأنت التى أخليت لحمى من دمى ... وعظمى، وأسبلت الدموع على نحرى

فقالت له:

ونحن بكينا من فراقك مرة ... وأخرى، وواسيناك فى العسر واليسر
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى ... جميل العفاف والمودة فى ستر

ليجيبها الحبيب المفارق:

فلا ذنب لى قد قلت نحن جيرة ... أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق

... فقدموه فضربوا عنقه[٥٣].

فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه»[٥٤].

---

(٥٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٨.

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بنى جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم، لحق بهم عشقاً وهياماً فى بنتهم حبيش، ومن ثم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير أن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «إنى لست منهم، إنى عشقت امرأة فلحقتها، فدعونى أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: اسلمى حبيش قبل نفاد العيش.. فقالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبروه بالخبر، فقال: **أما كان فيكم رجل رحيم؟**»[٥٥].

وكان أول المحتجين على فعل خالد بمسلمى جذيمة ذلك الصحابى الجليل عبدالرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذى عدت عليه جذيمة فى الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالداً يقول له غاضباً: «لقد عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام»، فأراد خالد أن يشرك الصحابى الأول فى الجريمة الشنيعة، ويلبسه جميلاً غير جميل بقوله له: «إنما ثأرت لأبيك»، لكن ليرد عليه عبد الرحمن بن عوف مكذباً محتجاً فاضحاً:

كذبت

فلقد قتلت قاتل أبى

لكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة[٥٦].

وأخذ المسلمون يتلاومون فى أمر قتلى مسلمى جذيمة المستسلمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغاً، فانتفض رافعاً يديه حتى رأى الناس ما تحت إبطيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغى أن يكون وفاء لأهله، مردداً من المرات ثلاثاً صارخات:

اللهم إنى أبرأ إليك

مما صنع خالد بن الوليد[٥٧].

ثم أردف هتافه الملتاع الغاضب الحزين بديات القتلى يرسلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى

---

(٥٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٤.

(٥٦) نفسه: ص ٣١٢.

(٥٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ترى العرب ذلك واضحاً، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول: إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمى جذيمة، وأنه «قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً. فمع هذا لم يعزله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل استمر به أميراً.. لهذا لم يعزله أبو بكر فى خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن فى سيفه رهقاً، فقال له الصّديق: لا أغمد سيفاً سلّه الله على المشركين»[٥٨].

(٥٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.

غــزوة هــوازن

«يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً
ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم»

الأنصار

لم تدرك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التى لاتقل عنها شأناً، أن الأمر يسير [فى] نتائجه التاريخية، ولا أدركت كلتاهما أن وحدة العرب فى جزيرتهم قد انعقدت فى صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تدرك القبيلتان أن غزوات [الـ]جـ[ا]هلية فى سبيلها إلى زوال، حيث يحكى لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن فى وادى أوطاس بجبل حنين، فيقول: «وكانت فى شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك ابن عوف النصرى، من بنى نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة، وقالوا: لامانع له من غزونا، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف»[59]، أما الطبرى فيعلمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظناً منهم أنه يريدهم[60]، وقد ذهب البلاذرى مذهب ابن الأثير فى قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس

(59) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦١.
(60) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٠.

قد تجمعوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا والرأى أن نغزوه»[٦١].

وعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرعب الذى أخذ هوازن، ودفعها دفعاً لتخرج فى حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائى من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم، حتى يجد كل رجل منهم فى نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعاً للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالباً بذلك روحاً فدائية ونصراً لايشك فيه.

وخرج النبى برجاله من مكة غازياً لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموى تحديداً طمأنة واضحة، تبليغاً بمكانتهم ودورهم فى الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، وكان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة[٦٢]، منبهاً بذلك إلى دور الجيل القرشى المقبل. ومطمئناً لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادى والتجارى، بل والدينى الذى أفرزه ظرفها التاريخى، وهو ماتؤكده رواية ابن الأثير حيث يقول: إن عتاب الأموى قد حج بالناس هذا العام، «وحج الناس تلك السنة على ماكانت العرب تحج»[٦٣].

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين فى اثنى عشر ألف مقاتل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد انضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبى وهو على رأس ركبه العظيم، تهتز تحته أرض البوادى تسمع العربان:

لن نُغلب اليوم من قلة!![٦٤].

وكانت كلمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معبرة تماماً عن واقع موضوعى واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تقاس عداً على جند الله الذين يمثلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة فى تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المقاتل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبى فى رجاله هاتفاً:

من قتل قتيلاً فله سلبه[٦٥].

---

(٦١) البلاذرى: أنساب الأشراف.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٤.

(٦٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.

(٦٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

(٦٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

وجاءه رجل من عيونه المتقدمين يحمل أخبار العدو يقول: «يارسول الله، إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشائهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال:

تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله[٦٦].

لكن على طريق هوازن، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حداثة عهد بالإسلام من العربان والطلقاء، حيث يمرون بشجرة مقدسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط، وعندما يرونها يقولون للنبى - صلى الله عليه وسلم - «يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية فى الجاهلية، ومن ثم لم يدرك هؤلاء مغزى التوحيد القومى والتوحيد الألوهى الذى لايقبل شراكة، وهم من لاشك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (١٤/ الحجرات)، لذلك كان رد رسول الله عليهم المستنكر: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة، لتركبن سنن من كان قبلكم»[٦٧].

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصر إن حدث غير تاريخ الجزيرة والعالم، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة، وعلم الأسباب ودرس الخطط، ليفعل ماسبق وفعله المسلمون أعوانها، فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع متميزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتى تنحدر إلى قعر فسيح يسمى أوطاس، ووزع رجاله فى مواقع مختارة بعناية، وهيأهم مابين رام وفارس وراجل ودارع، ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم وبعيرهم وشياههم وأموالهم، وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل ومافيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرها، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسما يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابى جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

> فلما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه، قد تهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا

---

(٦٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٦٧) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ١٨ باب لتركبن سنن الحديث ٢١٨٠.

الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لايلوى أحد على أحد[٦٨].

الآن ينهزم جيش دولة النبى وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام فى جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات، وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذى انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التى تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار، تفر الكثرة أمام القلة، ويتبعثر الاثنى عشر ألف مقاتل منهزمين يحاولون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تئز ورماح تطارد، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا حتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالا عنيفا، ليقف مكانه ثابتا، فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مبتغاها أو لا حياة، ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فراراً من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعا عن جنة الشهداء ونار الكافرين، سوى رابطة الدم وحدها، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بنى عبد المطلب وأبى طالب، ثمانية فقط من الاثنى عشر ألفا وقفوا ترسا واحدا فى حلقة حول ابن أخيهم، بينما النبى يهتف فى رجاله المؤمنين[٦٩]:

أين أيها الناس؟!
هلموا إلىّ
أنا رسول الله
أنا رسول الله
أنا محمد بن عبد الله

ويعقب ابن كثير على النداء النبوى:

ولاشىء!!
وركبت الإبل بعضها بعضا.

أو

وانكفأ الناس منهزمين
لايقبل أحد على أحد[٧٠].

---

(٦٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٢، ٢٦٣.
(٦٩) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤١.
(٧٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ص ٣٢٥، ٣٢٦.

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهاربين وسنابك خيولهم، يلمح أحد الفارين عمر بن الخطـ فيسأله: ماشأن الناس؟ ليجيبه عمر معبراً عن مدى اللوعة واليأس: أمر الله!![٧١]

وانتحى أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكانا آمنا يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفزعين، ليفصح لسانه عن مكنون صدره، فيهتف معبراً عن فرحه العظيم:

لاتنتهى هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذى خرج من مكة مع النبى وهو على شركه، وكان يظن أن ماحققه محمد إنما بفضل السحر، فقد علا صوته وهو يعلن سعادته جهيرة بما يرى ويصرخ:

ألا بطُل السحر اليوم!!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، معبراً عن قبليته العميقة وعصبيته المتجذرة لأهله، يقول: «اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يربنى رجل من قريش، أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن»[٧٢].

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة»[٧٣]، فيمر عليهم رجل من قريش ينادى صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لايجتبرونها أبداً»، ليرد صفوان مكرراً معبراً عن أسفه مما يسمع من بنى قريش: «تبشرنى بظهور الأعراب؟ فوالله لرب من قريش أحب إلى من رب من الأعراب»، وهى ذات المشاعر العشائرية التى عبر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «والله ما أخرجنى إسلام ولامعرفة به، ولكنى أبيت أن تظهر هوازن على قريش»[٧٤].

أما النبى الذى وقف يشاهد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء

لاتعبد فى الأرض بعد اليوم[٧٥].

---

(٧١) نفسه: ص ٣٢٩.
(٧٢) نفسه: ص ٣٢٥.
(٧٣) نفسه: ص ٣٢٨.
(٧٤) نفسه: ص ٣٢٩، ٣٣١.
(٧٥) نفسه: ص ٣٢٦.

وكان لابد من عمل سريع، وتصرف حاسم، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن، يرفع الراية ويمسك برمح طويل لايحمله إلا رجل شديد المراس، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف، وهنا يرفع النبى إصبعه مشيراً إلى حامل الراية، ويتبع على بن أبى طالب الإشارة ليهوى بسيفه على عقب الفرس، فيسقط فيقتله فتسقط الراية، وترتبك هوازن.

ثم يجول المصطفى بعينيه يبحث بين الهاربين عن خئولته من أهل الدم والحرب والحلقة اليثاربة، ثم يهتف بعمه العباس فجأة، بينما هو واقف يمسك بزمام بغلة الرسول دلدل.

ياعباس؛

ناد: يامعشر الأنصار

يا أصحاب الشجرة

كان النداء نداء رحم وخئولة، وتذكيراً بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة، وتنبيها إلى عقد العربى وجواره المعقود بين الأنصار والنبى فى العقبة، واستشرافا لشهامة النجدة والمروءة، واستنفاراً للنخوة العربية، ويستمر العباس ينادى والنبى يلقنه:

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية

الله، الله

الكرة على نبيكم

يا أنصار الله

يا أنصار رسول الله

يابنى الخزرج

يا أصحاب سورة البقرة

يا أصحاب السمرة(٧٦)

نداء لمس الحواشي وهز ما بين الجوانح ولجّت به الخئولة فى تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها،

---

(٧٦) نفسه: ص٣٢٨، ٣٢٩.

فقالوا:

يالبيــكاه

يالبيــكاه[٧٧]

ويمضى العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبى بعهد وعقد عربى، ليصف لنا المشهد الثانى للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهداً على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

> فيذهب الرجل منهم يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بعيره، فيخلى سبيله فى الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ماكانت: يا للأنصار ثم جعلت أخيراً ياللخزرج[٧٨].

وصمد المسلمون، وبدأ الفارون فى العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامى يشتد مرة أخرى ليعمل عمله فى هوازن وثقيف لينتحى النبى يمينا وحوله آل بيته الهاشمى، ويقول من معتلاه: الآن حمى الوطيس.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة فى تعقيبه على دورة الدائرة على هوازن فى وادى أوطاس، وقوله: الآن حمى الوطيس، والوطيس فى شرح السهيلى هى نقرة فى حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم، ويعقب بأنها من الكلم التى لم يسبق النبى إليها أحد[٧٩].

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن يقتل من قدر عليه، فحنق المسلمون عليهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فنهى عن قتل الذرية»،[٨٠] وماهى إلا سويعات حتى جمع المسلمون من الأسرى مايربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قتلوا[٨١]، ووقف المسلمون يحصون غنائمهم التى وصلت أربعة وعشرين ألف بعير،

---

(٧٧) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٨) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٤.

(٧٩) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ص ١٣٨.

(٨٠) ابن سعد: الطبقات..سبق ذكره مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(٨١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٢.

وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة[٨٢]، أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتم حبسها في الجعرانة حتى ينظر في أمر توزيعها على أفراد الجيش المنتصر.

هذا بينما كانت أم سليم تعبر عن مشاعر السخط على الخونة في الجيش والطلقاء من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المبشرة لمن ستكون الكرة، فتقول للنبي: «يارسول الله اقتل من بعدها **الطلقاء الذين انهزموا بك**، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»[٨٣]. وفاضت مشاعر حسان بن ثابت الأنصاري ضد الطلقاء، فقال في كلدة بن الحنبل الذي كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

رأيت سواداً من بعيد فراعني	أبو حنبل ينزو على أم حنبل
كأن الذي ينزو به فوق بطنها	ذراع قلوص من نتاج ابن عزهل[٨٤]

---

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(٨٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٦.

(٨٤) ابن هشام في كتاب السهيلي: الروض. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

حصار الطائف

«والله لنحن أذلّ من العبيد»

[عيينة بن حصن]

الطائف، مدينة الثقفيين الكبرى التى بلغت شوطا عظيما فى التمدين، كانت المدينة التى لاتقل شأنا عن مكة، ونافست يثرب طويلا على صدارة الموقع الثانى بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول، مستمدة ذلك من قوة أدت إليها عوامل عدة، فهى من أعدل مناطق الجزيرة مناخا وأكثرها خصوبة وزرعا، إضافة إلى موقعها الذى يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء، وهو الأمر الذى جعلها فى حسابات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تحقق مشروعه العظيم، تقع فى الموقع الأول فزارها داعيا لكنهم ردوه رداً سفيها، فيمم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال فى يثرب، بعد أن فقد الأمل فى فهم سراة ثقيف وأشرافها لأبعاد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المقاتلين، يجب أن نوقن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التى كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعها فى المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجارى لرحلة الشتاء، وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفيين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها

الخصبة، وهو مانجده واضحا عند ابن حبيب[٨٥].

وطبيعى أن تحاول ثقيف الاستقلال الاقتصادى، وهو ما أدى إلى تنافس جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل التجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزاً للتجارة والتجار، ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقين فيما يعرف بحرب الفجار، وغنى عن الذكر أنها سميت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتى أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة القرشية[٨٦].

ويبدو أن قريشا قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثل فى استيلاء الفرس على اليمن، وهو ما أدى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفا قبليا لها ليهاجم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويغلق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلى، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بنى عوف مقابل بنى مالك، بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادى داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها مايريدون من أموال، لينتهى القريشيون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحولوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزى، وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصريف منتجاتهم الزراعية فى مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يقتسمان النفوذ تقريبا عند ظهور الإسلام، حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامى، وتركت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومصاهرات ومشاركة فى رؤوس الأموال.

وعندما نتذكر أن ثقيف هى التى كانت دليل جيش أبرهة الحبشى نحو مكة عام الفيل[٨٧]، يمكن أن نفهم فوراً موقف ثقيف المتصلب عندما ذهبها محمد داعيا، ثم موقفها المتصلب من النبى ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام سادتها للنبى، حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع

(٨٥) ابن حبيب: المنمق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط ١، الهند، ١٩٦٤، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٦) نفسه: ص ٢٠٩.

(٨٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ص ٢، ١٩٥٥، ج ١، ص ٤٧.

التام لسيادة قريش إن غزاها النبى، ومن ثم قامت تحالف هوازن لتكوين جبهة تحاول إنقاذ مصالحها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين، بينما كان النبى على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعياً، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبى، ومن ثم لم يغنم جنده شيئا يعوضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئا على الإطلاق[88]. ومن ثم كان توجيه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتين كانتا قد تهيأتا بدورهما للمعركة الانتحارية[89].

وبالهزيمة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصونهم القوية وميرتهم وزادهم الكثير[90]، وهنا أمر النبى بالمسير فورا إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفلت فى النعيم، ولاتقل ثرواتها عن ثروات المكيين، واقتنى سادتها الثمين من مقتنيات الذهب والفضة، وحلوا نساءهم بالجوهر على أنواعه، فقد انسلت خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبى وهم يوجهون نحو الطائف تقول له:

> يارسول الله، أعطنى إن فتح الله عليك الطائف، حلى بادية بنت غيلان، أو حلى الفارعة بنت عقيل[91].

هذا بينما كان المخنث (هيت) مولى فاختة بنت عمرو خالة النبى، يقول لعبد الله بن أمية:

> إن فتح الله عليكم الطائف، فسل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان، فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، وإن مشت ارتجت، وإن قعدت تبنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، بين رجليها كالقعب المكفأ[92].

وكان (هيت) يدخل على نساء النبى ويذهب إلى بيوته، والرسول لايظن أن له شيئاً مما للرجال، وأنه لايفطن إلى شىء من أمر النساء مما يفطن إليه الرجال، ولايرى أن له فى ذلك إربا، فلما سمعه يقول ماقال لعبد الله بن أمية قال: «لاأرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع، ثم قال

---

(٨٨) الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٦٤.

(٨٩) اليعقوبى: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٥٣.

(٩٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٦.

(٩١) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.

(٩٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦٨.

لنسائه: لايدخلن عليكن، فحجب عن بيت الرسول»[٩٣] لكنه فى رواية السهيلى قال لهيت: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ثم قال: لايدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعا، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس»[٩٤].

وصيغة الجمع فى قول رسول الله: «لايدخلن هؤلاء عليكن»، تشير إلى آخرين مخنثين عاشوا فى مدينة الرسول مثلما كان حال (هيت) وهو مايفيدنا به السهيلى فى شرحه لأمر مخنثى المدينة حيث يقول: إن المخنثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماء تليق بهم، فهم (هيت) و (هرم) و(مـانع) و (أنّه)، ووصفهم بقوله: «كـان تأنيـثـهم لينافى القـول وخـضـابا فى الأيدى والأرجل كخضاب النساء، ولعبا كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفى مراسيل أبى داود أن عمرو رضى الله عنه رأى لاعبـا يلعب بالكرج، فقـال: لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عـهـد النبى - صلى الله عليه وسلم - لنفيته من المدينة»[٩٥].

وبالوصول إلى الطائف أمر النبى بقصر مالك بن عوف المتطرف فأحرق[٩٦]، ويقول البيهقى أنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يومـا، فكان أول من رمى بالمنجنيق والدبابات والصنبـور فى الإسلام، لكن ثقيف المستميتة تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبى بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنويا[٩٧]، فنادوه من على الأسوار «لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أولكم»[٩٨]، فرد عليهم بنداء آخر يسمع عبيدهم أن من خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هربا بعضهم على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابى الجليل أبو بكرة[٩٩].

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذى لم يعد مطاعا (عيينة بن حصن) زعيم غطفان الفزارية إلى النبى، والمفترض أنه قد أصبح مسلما، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف فى حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

بأبى أنتم، تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لئن

---

(٩٣) نفسه: ص ٢٦١.
(٩٤) السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٣.
(٩٥) نفسه: ص ١٦٤.
(٩٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٥٧.
(٩٧) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٩.
(٩٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٤٦، ٣٤٧.
(٩٩) نفسه: ص ٣٤٧.

حدث به حدث لتملكن العرب عزة ومنعة، فتمسكوا بحصونكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولايتكاثرن عليكم قطع الشجر(١٠٠).

وطال الحصار، وعلم النبى أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيفا تمتنع فى حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدؤلى، فقال له: يارسول الله ثعلب فى جحر، أن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك»(١٠١)، فاستدعى النبى أبا بكر وقال له: «يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديك، فهراق مافيها، فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ماتريد، فقال رسول الله: وأنا أرى ذلك»(١٠٢). ومن ثم أذن فى الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفانى عيينة بن حصن الفزارى نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفوره معبراً عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كراما، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله ياعيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد جئت تنصره؟ فقال: والله إنى ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها»(١٠٣).

أما ابن كثير فقد التمس تفسيراً تبريريا لرفع الحصار عن الطائف وذلك فى قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ، لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبى طالب، فردوا عليه قوله، وكذبوه، فرجع مهموماً، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فناداه ملك الجبال، فقال: يامحمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لايشرك به شيئا، فناسب قول: بل أستأنى بهم، ألا يفتح حصنهم لئلا

---

(١٠٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٦٣.
(١٠١) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٧.
(١٠٢) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.
(١٠٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥٠.

يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام المقبل[١٠٤].

وعاد النبى برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبى هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاعة، وأن اسمها الشيماء، فسألها عن مؤيدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها، فيتعرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على العلامة، فيبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ويخيرها بين البقاء عنده محببة مكرمة، أو أن يعيدها إلى قومها ممتعة، فتقول له: «بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.. فأسلمت، فأعطاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة أعبد وجارية، ونعما وشاء، وسماها حذافة، وقال: الشيماء لقب»[١٠٥].

وتعلم هوازن بعودة النبى، وتدرك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل فتختار له تسعة ممن بقى من أشرافهم، ليعلنوا أمامه إسلام هوازن ويبايعوه على السمع والطاعة، ثم يفاتحوه فى مصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازى الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وكان رحيما جواداً كريما، فقال سأطلب لكم ذلك»، أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال: إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عيينة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمى ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعا فى نهاية الأمر[١٠٦]، وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مؤمنة مسلمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخسرت أموالها وشرف بعض نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماكان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة فى صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورؤوس وأشراف كبار، كان أحدهم لايقبل برأس يعلو رأسه، فدخلوا على مضض مرغمين، يتحينون فرص النكوص، وعبروا فى أكثر من موقف عن مكنون صدورهم، أما الأخطر فهو ما يمكن أن يسببوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذى يمكن استنتاجه

---

(١٠٤) نفسه: ص ٣٥١.

(١٠٥) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(١٠٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٢، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٢.

ببعض الظن، فمن المحتمل أن يكون ماحدث فى المشهد الأول لوقعة حنين ترتيبا مقصوداً من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كفزارة وسليم وتميم، فيهرب فرسانهم أمام هوازن، لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذى يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع، وهو أمر محتمل تماما إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامى وعدد أفراد هوازن المقاتلين، وهو مايزداد تأكيداً إذا تذكرنا أن الكرة عادت على هوازن فقط بمئة أنصارى من بين الاثنى عشر ألفا، أخوال الرسول وناصروه فى كل موقع بخئولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار فى الوقعة لكانت النتائج مختلفة تماما، ولربما تغير وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفاذ يستدعى حلا سريعا لرتق تلك الثغرات فى الولاء للدولة، فقام يوزع الأعطيات الهائلة من مغانم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرؤوس والهامات الصلبة الثرية أصلا، ليفتح عيونهم على ماينتظرهم وإشعارهم أن الإسلام لاينتقص منهم ومن مكانتهم، بل يزيدهم ثراء على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعيه، إزاء الطموحات المتوثبة فى الوعد النبوى بكنوز كسرى وقيصر. فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشى وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلما أعطى أباه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما، كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مثلها فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرافهم وأثرياؤهم، لكل منهم مائة من الإبل، وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطا شديداً وقام يعبر عن واقع مايحدث من سيادة وتسييد بقوله:

فأصبح نهبى ونهب العبـ	ـيد بين عيينة والأقرع
وما كنت دون امرىء منهما	ومن تضع اليوم لايرفع

فقال النبى: اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فظلوا يعطونه حتى رضى، ثم وزع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى فى السيادة درجة(١٠٧) كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع.

ولاشك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبى فى غزواته وطلوعها على العرب فى سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أومن بين أحلافهم، ثم لاشك يتذكرون يوم أحد،

---

(١٠٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٥.

عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرون، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف ضن النبى بطلحة عندما كان يهرب إلى معتلى الصخرة، ويقول: ألا أحد لهؤلاء، فيكر أنصارى عليهم يمنعهم عن النبى فيموت شهيداً، ثم يصعد النبى ومعه طلحة، فيقول النبى: ألا أحد لهؤلاء، فيقول طلحة: أنا لهم يارسول الله، فيقول كما أنت ياطلحة، فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيداً.

لاشك أيضا يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاهم النبى مهيضا لاجئا مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولاشك أيضا أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولاهم عندما عطفوا عطفتهم على هوازن، مابقى من الأمر شيء وهنا تعلو الأصوات، ويكثر اللغط، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل مواطن وكل شدة ثم آثر قوما علينا وقسم فيهم قسما لم يقسمه لنا، ومانراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيعطيه، وأما من لا يقاتله فلا يعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يكثرون فى الكلام، حتى قيل للرسول مالايصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروى: «كنت عند النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله أعرابى فقال: ألا تنجزلى ما وعدتنى؟ فقال له: أبشر، فقال الأعرابى:

لقد أكثرت علىَّ من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له:

يامحمد اعدل.

ليرد النبى: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيجاوبه ذو الخويصرة من بنى تميم غاضبا:

لقد رأيت يامحمد ماصنعت.

فيسأله: وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربى:

لم أرك عدلت.

فهم به عمر يقول: يارسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ لكن ليرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «دعه، إن له أصحابا».

بينما كان آخر يردد بين القوم:

إن هذه القسمة ماعدل فيها

وما أريد بها وجه الله.

فيذهب رجل بالكلام إلى النبى، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة، ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟[١٠٨].

وينتحى الأنصار جانبا وهم يرون أوباش القبائل يحيطون بالنبى فى جمهرة عظيمة، تطالبه بوقف الأعطيات، يقولون له: يارسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، والنبى يتراجع بين الأصوات الغاضبة، حتى يلجئوه إلى شجرة يعلق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم: أيها الناس ردوا على ردائى، أيها الناس والله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم[١٠٩]. ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ماتبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعون من الشياه[١١٠]. هذا بينما وقف حسان بن ثابت أحد الأنصار ينشد عتبه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا برقة مشاعر الخئولة:

زادت همـوم فمـاء العـين منـحدر	سـحا إذا حفلتـه عـبرة درز
وات الرسـول فقـل ياخـير مؤتمـن	للمؤمنيـن إذا ماعـدد البشـر
عـلام تدعـى سـليم وهـى نـازحـة	قـدام قوم هـم آووا وهـم نصـروا
سـماهم اللـه أنصـاراً بنصـرهم	دين الهـدى وعـوان الحـرب تستعر
وسـارعوا فى سـبيل اللـه واعترفـوا	للنائـبات وماخـاموا وماضجـروا
والـناس ألـب علينـا منـك ليـس لنا	إلا السـيوف وأطـراف القـنا وزر
فمـا ونيـنا وما خمنا ومـا خـبروا	مـنا عثاراً وكل الناس قد عثروا[١١١]

---

(١٠٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٧٣، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، انظر أيضاً الواقدى: المغازى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤٨.

(١٠٩) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٥٩.

(١١٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(١١١) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢.

وهنا ينادى المنادى بالأنصار وحدهم ليجتمعوا فى قبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقف فيهم خطيبا يقول:

يامعشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم؟ وجدة وجدتموها على أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، وطريداً فأويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟

ألا ترضون يامعشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولوسلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظا[112].

ثم يختتم الوحى أحداث حنين بقوله الصادق:

﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ (٢٥ :٢٧ التوبة).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عبر لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن واقع الحال عندما قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحى «إذ أعجبتكم كثرتكم»، وهو الإعجاب الذى ماكان ممكنا أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد

---

(١١٢) نفسه: ص١٥٧.

عدوهم، وهو ما يجافى تمام المجافاة روايات جاءت بكتبنا الإخبارية تؤكد أن عدد مقاتلى هوازن بلغ عشرين ألف مقاتل، وهو الأمر الذى يتناقض تناقضا صارخا مع عودة الكرة عليهم بمئة مقاتل أنصارى، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين، ويبدو لنا أن قصة العشرين ألف هوازنى كانت لونا من المبالغة، لجأت إليه كتبنا الإخبارية فى محاولة لتبرير الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدها فى الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل ولاننسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذى ضم معظم محاربى القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ - رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن - سوى اثنى عشر ألف مقاتل. وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياسا على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفين، فإن عدد الرجال المقاتلين لايمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأى حال من الأحوال.

ولم يكن ثمة حديث عن تدخل الملأ السماوى إزاء تلك الكثرة المزعومة فى جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أخوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القتال حتى حققوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملأ السماوى وروايات المعجزات الملغزة.

ومع ماجاءت به الآيات الكريمة ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح فى الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملأ الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

> أن مالك بن عوف النصرى بعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ماشأنكم؟ قالوا رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى(١١٣).

ثم نموذج آخر مُجهَّل المصدر بدوره، لا نعرف أصحابه فى رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبى والطالبى:

> عمن شهد حنيناً كافراً قال: لما التقينا نحن ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدى رسول الله -

---

(١١٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢.

صلى الله عليه وسلم ـ، حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام(١١٤).

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتى الحديث منسوباً إلى شيبة بن عثمان العبدرى، الذى خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله فى زحمة القتال، فيقول ابن كثير راوياً على لسان شيبة:

لما رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين قد عُرى، ذكرت أبى وعمى وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأرى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف، إذ رفع شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق، فخفت أن يمحشنى(١١٥).

هذا بينما يروى البلاذرى الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول:

وكان شيبة بن عثمان العبدرى شديداً على المسلمين، وكان ممن أومن فسار إلى هوازن طمعاً فى أن يصيب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: فدنوت منه، فإذا أهله محيطون به، ورآنى فقال: يا شيب إلىّ، فدنوت منه فمسح على صدرى ودعا لى فأذهب الله كل غل فيه، وملأه إيماناً وصار أحب الناس إلىّ(١١٦).

أما ذلك الراوى الذى كان طوال الوقت مغرماً بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروى لنا على لسان جبير بن مطعم قوله:

إنا لمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذا نظرت مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة(١١٧).

أما السهيلى فيشرح لنا اختيار النمل تحديداً لتتلبسه الملائكة فيقول:

ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث، إشعاراً بكثرة عددها، إذ النمل لا يُستطاع عدها، مع أن النملة يضرب بها المثل فى القوة، فيقال: أقوى من

---

(١١٤) نفسه: ص ٣٣١.

(١١٥) الموضع نفسه.

(١١٦) البلاذرى: أنساب.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٦.

(١١٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٢.

نملة، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك: قوتك قوة نملة، فأنكر عليه، فقال: ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة(١١٨).

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة، وأن سيماءهم يوم حنين كانت عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم(١١٩)؟!

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى فى رواية يوردها ابن كثير تقول:

فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: الآن حمى الوطيس، ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.. ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد، فهزمهم الله عز وجل، ثم أقبل على المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال: ارجعوا، شاهت الوجوه، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى فى عينيه(١٢٠).

وبين حديث المعجزات يأتى حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبى نسائها، وفيهن أخوات النبى وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروى أبو سعيد الخدرى قوله:

أصبنا نساء من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فنزلت الآية هذه: والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم، فاستحللنا بها فروجهن.. وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذا الحديث فى سبايا أوطاس(١٢١).

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حروراً، ثم أعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنسائها، ليروى البيهقى واقعة طريفة تحكى:

---

(١١٨) السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٢.

(١١٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(١٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٠، ٣٣١.

(١٢١) نفسه: ص ٣٣٨.

إن عثمان كان قد أصاب جاريته، فخطبت إلى ابن عم لها كان زوجها، وكان ساقطاً لا خير فيه، فلما ردت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة في زمان عمر أو عثمان، فلقيها عثمان، فأعطاها شيئاً بما كان أصاب منها، فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك منى؟ قالت: نعم، زوجي وابن عمى[١٢٢].

حكاية تحاول تبخيس شأن رجال هوازن، الذين كانوا أزواجاً لنساء أتاهن المسلمون في غزوة حنين، ونكحوهن بقوانين السبي العربية التليدة.

---

(١٢٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٨.

الباب الرابع

قيـــام دولـــة العــرب الموحــدة

البـــــــراءة

«إنمـــا محمـــد أُذُن
مـــن حدثـــه شـــيئاً صدقـــه»

[نبتل بن الحارث]

الآن وقد تم إخضاع خيبر تماماً لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلاً، فسلبت أموالها، ونكحت نساؤها، وأسلمت جميعاً راغمة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب فى جحر، وبعدما خرج عليها سيدها مالك بعد ما تألفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولى على قوافلها، وبعدما تضخم حجم الجيش الإسلامى وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعاً، عادت كنوز قيصر تنادى العرب. ففى صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن منادى النبى فى الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكى راوى السيرة ابن هشام فيقول:

ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.. وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون

> المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم[1].

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المتحالفة وإدخالها جميعاً فى حلف الدولة، وما أدى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المعارضة التى أطلق عليها اصطلاح (النفاق)، بعدما تقلمت أظافرهم تماماً، تعود الأخبار تخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبى إلى غزو الروم، فقام المنافقون يثبطون همم الناس، ويجتمعون فى بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا فى الحر».

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكاً فى الحق وإرجافاً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، ولكن لأن الظروف قد تغيرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتطاول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سراً لبحث شئونهم، فكان أن أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه، فحرق عليهم البيت وهم فيه[2]، ثم جاء الوحى يقول: ﴿وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾ (٨١،٨٢/ التوبة)، أما النبى فقد كان يحدث أصحابه بينما البيت يحرق على المجتمعين فيه: «فى أصحابى اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»[3].

وأحياناً ما كان المسلمون يأتون النبى يستأذنونه فى عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخل الله بنفسه ولم يقبل عذرهم بل وجه لهم اتهامات مباشرة بالكذب، ثم نصح رسوله بألا يعذرهم ولا يقبلهم فى جيشه حتى لا يؤثروا فى جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

> ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم

---

(١) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٣.
(٢) نفسه: ص ١٧٤.
(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦١.

لكاذبون. عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون. ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾ (٤٢ : ٤٧/ التوبة).

وهكذا، وبينما ينفق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين ميرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذى تبرع بألف دينار[٤] كان هناك آخرون يشكون فى جدوى تلك الغزوة، ويشكون فى نصر العرب على جيوش قيصر، فشكوا فى الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف، فيما بلغنى منهم: عبد الله بن أبى ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً فى قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان فى جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم[٥].

أما الوحى فقد استمر شارحاً لموقف هؤلاء فاضحاً لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نقمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتى أعطاها النبى للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ (٥٨/التوبة).

وقد وضح موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تشير إلى جبنهم عن ملاقاة الروم بنى الأصفر وتخوفهم ذلك، عندما رأوا النبى يقود جنده ميمماً شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ وا لله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»، فلما علموا أن قالتهم قد بلغت النبى هرع وديعة بن ثابت بهم يمسك بناقة الرسول يعتذر قائلاً: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿ولئن

---

(٤) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٤.
(٥) نفسه: ص ١٨٩، ١٩٠.

سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾[٦] . وهو الأمر الذى يشير إلى تضاؤل شأن المعارضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين فى ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتحاصر تبوك، فيخرج يوحنا بن رؤبة المنوب على أيله من القيصر ليصالح الرسول على دفع الجزية، ويتبعه أهل جرباء وأذرح، ويكتب لهم النبى كتاباً بذلك، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندى فصالحه بدوره على الجزية، واكتفى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه فى حمص[٧] .

ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جداً، حيث يروى ابن إسحق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش فى الحجر، فدعا النبى ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماء، وهنا يقول محمود بن لبيد:

> لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك؛ هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة[٨] .

لكن ليجد المنافقون فى عودة النبى دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالاً للخوض، وهنا يعلمنا البيهقى السبب وراء خروج النبى إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم؟ وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك فى قوله: «ما روى فى سبب خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه.. أن اليهود أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبى، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً [إلى قوله:] تحويلا﴾ (٧٦ ـ ٧٧/الإسراء)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث»[٩] .

---

(٦) نفسه: ص ١٧٨ .

(٧) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٧ .

(٨) نفسه: ص ١٧٦ .

(٩) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٤٥ .

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار ومادار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مسماة، ويعددها ابن هشام فيقول إنها كانت كالتالى: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمى ومسجد بآلاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق - شق تارا - ومسجد بثنية حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذى الجيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادى - اليوم وادى القرى - ومسجد بالرقعة من الشقة - شقة بنى غدرة - ومسجد بذى المروة ومسجد بالفيفا ومسجد بذى خشب»[10].

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجداً وجاءوا النبى عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه»، وكان جواب النبى وعداً جميلاً يقول: «إنى على جناح سفر وحال شغل. ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه»[11].

لكن مع تواتر النفاق فى هذه المرحلة جاء النبى الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم من الأوس تحديداً، حيث يفيدنا الثعلبى النيسابورى أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذى غادر المدينة مخاصماً للرسول (أبو عامر بن النعمان بن صيفى) المعروف باسم الراهب، لكن النبى أسماه بالفاسق، حيث كان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبى اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مغاضباً له، ثم تفيدنا المصادر أنه قبل غزو النبى للروم بقليل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسى، وقال لهم: أعدوا العدة والسلاح وابنوا لى مسجداً، فإنى ذاهب إلى قيصر وآتى بجند لنخرج محمداً وأصحابه من المدينة»، ويزعم الثعلبى أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا﴾[12].

ويحكى لنا البيهقى ما حدث بشأن ذلك المسجد الذى وعد النبى أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين، فيقول: «إن النبى - صلى الله عليه وسلم - أقبل من تبوك حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار.. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى.. فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه، فخرجا سريعاً حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه»[13]. لقد بانت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

---

(١٠) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٠.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) الثعلبى: عرائس المجالس.. سبق ذكره، ص ١٤٠.

(١٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد جاء الوحى يعقب على إحراق المسجد فى آيات كريمة صريحة تقول:

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ (١٠٧ : ١١٠/ التوبة).

ويحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيراً وحسناً، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين، وأدركوا أن جهاز الدولة الرقابى قد دخل بيوتهم وتصنت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبتل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف:

إنما محمد أُذُنٌ

من حدثه شيئاً صدقه(١٤).

لكن ليتدخل الوحى مرة أخرى شارحاً موضحاً مبيناً:

﴿ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ (٦١/ التوبة).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التى كدرت صفو الرسول ومدينته، يأتى حدث جديد، يضيف للدولة رصيداً، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكى ابن كثير:

أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ارتحل عن ثقيف، سُئل أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أسلم مالك بن عوف النصرى، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى

---

(١٤) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٠.

الدخول في الإسلام، وتقدم أيضاً فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية .. ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا .. ثم أجمعوا أن يرسلوا رجلاً منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير .. ومعه بضعة عشر رجلاً[١٥].

وكان فرح المغيرة بن شعبة الثقفي عظيماً لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليعلمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكيف يؤدون له التحية، لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العربان، وحيوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبي فضربت لهم قبة في مسجده تكريماً لهم، وجلس النبي في مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدم لهم طعاماً رفضوا تناوله توجساً وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب.

وإبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرض الرسول إطلاقاً، بل أعلمهم أنه سيرسل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبة ليهدماها، ثم سألوه أن يسقط عنهم الصلاة.

لم يدرك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديداً لآيات القرآن حتى تعتاده آذانهم، ثم إنها تحوى الشهادة للرسول بالنبوة في كل مرة، وتعود الملتزم بها الانتظام في نظام صفوف صارم، كل ما رأوه فيها إرغاماً لأنفهم العربية المتأبية المتكبرة على السجود، ولم يدركوا أنها كانت إخضاعاً لسلوكهم اليومي لمؤسسة دقيقة مرتبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة الموحدة، ولم يقبل النبي أي تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم «لا خير في دين لا صلاة فيه»، فكان ردهم الصريح: «سنؤتيكها»، أبداً لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة «سنؤتيكها وإن كانت دناءة». ثم أصروا ألا يكونوا كبقية الأعراب، فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبي أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا في معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[١٦].

---

(١٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦، ٢٧.

(١٦) نفسه: ج ٥، ص ٢٧.

واستأذن الثقفيون النبى أن يسبقوا رسله المزمع ذهابهم معهم لهدم اللات، «فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوخ العرب.. فألقى الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا»[١٧].

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبو سفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحلى وذهب وفضة[١٨]. بينما كان النبى قد أمر على ثقيف عثمان بن أبى العاص أميراً منوياً من قبله، وكان أحدثهم سناً[١٩].

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتى موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لابد أن تشرف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً منوياً من قبله على حج سنة تسع للهجرة ليقيم للناس حجهم.

ويفاجئ الأمر قريشاً، فحتى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب، نعم إن أبا بكر قرشى، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميراً على الحج، هو معنى يسلب قريشاً وضعها السيادى الباقى فى إقامة الشعائر الدينية للعربان، وهنا تعترض قريش هاتفة: «إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا»، لكن ليأتيهم الرد ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[٢٠].

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، اسلام الجميع دون موارية، حيث أكدت كتب السير أن «الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم».

ثم تأتى الضربة القاصمة فى نقض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على «ألا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك»، لضمان استمرارالتجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك النقض عندما أرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر، ومعه أوامر الوحى فى الآيات المعروفة باسم (براءة) وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد

---

(١٧) نفسه: ج ٥، ص ٣٠.
(١٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩٣.
(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٨.
(٢٠) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

فهو إلى مدته .. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أُذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة»[٢١] . وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

﴿إنما المشـركـون نجس فـلا يقـربوا المسـجـد الحـرام بعـد عـامـهم هذا﴾ (٢٨/ التوبة) .

كـان مـعنى ذلك خـراب ديار قـريش إلى آخـر الدهر، فـمـعنى ذلك توقف التـجـارة ودمـار الأسواق، وزاد الأمر نكاية ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهى بإلغاء العمل بنظام النسىء، وكان النسىء تحريكاً للأشهر الحرم القمرية، لتدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع مـوعـد المحـاصـيل والرياح الموسـمـيـة فى بحـر الهند، وهى الرياح والمحـاصـيل التى تسـيـر وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادى)، وجاءت الآيات تؤكد:

﴿إنما النسىء زيادة فى الكفـر يضل به الذين كـفـروا يحلونه عـامـاً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ (٣٧/ التوبة) .

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جـميعاً، وهو ما قال المسعودى بشأنه شارحاً: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرام قد عادت إلى بدئها على ما كانت عليه فى أصلها، وذلك قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٢٢] .

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعاً بها وتكريماً لها وتوقيراً. لجعلها رمزاً لوحدة البيت الجامع للعرب المتوحدين فى الدولة الواحدة، لكنه كان ضرباً واضحاً للتجارة والأسواق، بل وتراجعاً بالعرب جميعاً عن مركز دولى متميز حققوه من ذلك النظام التجارى الدينى، فأمسكوا بعنان تجارة العالم، وبدأت قريش تشك فعلاً فى أهداف الدولة الجديدة. وصورت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلى، وانتقام مما سبق وقدمت أيديها، وتقف تقول:

لتقطعن عنا الأسواق، فلتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق[٢٣] .

لكن لتفاجأ بسوء ظنها، وتبدأ فى رؤية ما ينتظرها حقاً، عندما يرد عليها الوحى الكريم:

﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ (٢٨/ التوبة) .

---

(٢١) نفسه: ص ١٨٧، ١٨٨ .

(٢٢) نفسه: ص ١٨٩ .

(٢٣) الموضع نفسه .

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تعوضهم عن خراب تجارتهم وبوار أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مؤيداً بآى الله الكريم، فى قوله: «﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، أى من وجه غير ذلك.. ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، أى ففى هذا عوض عما تخوفتم من قطع الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية»[٢٤].

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب فى الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأى أهل كتاب؟ وهنا توجهت الأنظار بعيداً، إن الآيات تطلب منهم تعويض خسائرهم هناك، فعند الإمبراطوريتين كنوز عظيمة، وهنا تفهم قريش سر كل ذلك التضييق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال. لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيزيح القديم، وجاءت الآيات تؤكد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتوجه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتخل تماماً بنظام التجارة العظمى التى كانت قريش تشرف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتتالى ذلك الإسلام بعد أشهر فى وفود تشهر إسلامها، جعل هناك استحالة فى تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، لقد آن أوان تحقق الوعد المغلظ بالأيمان الذى أطلقه النبى فى مكة عندما كان مهيضاً:

والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر

وجانب آخر، يدركه الوعى النفاذ، أن الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هى تقديم هدف مألوف لها، البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعيه. لقد أصبح مطلوباً من العرب أن يتحولوا عن مجرد سادة تجارة العالم، ليصبحوا سادة هذا العالم نفسه، أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يعانون من الخراب نفسه، ولم يعد أمامهم سوى الانخراط فى الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المنتظرة، لقد جاءت وثيقة الوحى براءة، لتدفع الجميع دفعاً إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحد وإلى التوجه خارج الجزيرة.

أما ختام المسك فكان موت رأس المعارضة والنفاق، عبد الله بن أُبى بن سلول، الذى خفتت بعده أصوات المعارضة تماماً.

---

(٢٤) المسعودى: مروج الذهب... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧.

عام الوفود

«والله؛ لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت
لو أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله»

[إريد بن مقيس]

قال محمد بن إسحاق:

لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام:

حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق:

وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت الحرب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم

بحرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل أفواجا، يضربون إليه من كل وجه،

يقول الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر)(٢٥).

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدوم الوفود العربية من بلاقع الجزيرة وفيافيها لتعلن لسيد العرب خضوعها، وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين، وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالا، مدعاة أخرى واضحة أوضحناها لقدوم تلك الوفود الكبرى، أما النبى بكرمه الذى يليق به، وعطاياه للوفود مما أفاء الله عليه، ومن خمسه المقرر وحيا، فكانت عاملا آخر ودافعا غير منكور فى كتبنا الإخبارية لقدوم الوفود تعلن انضمامها لدولة الإسلام، وبين كل وفد كان ينتقى رجلا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم الأوضاع والمتسمة بالطاعة للسلطة النبوية، فيجعله أميراً من قبله على قومه، وللقرار بمنح الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط فى تألف العربان. فيقول محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية، أن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد القبيلة الكبرى تميم، وعلى رأسها عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة فى قومهم، وبصلف العربان دخلوا يثرب إلى مركزها الإدارى مباشرة، إلى المسجد، فلم يجدوا سيد المدينة، فكان أن وقفوا ينادون الرسول من وراء حجراته:

اخرج إلينا يا محمد.

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان، ولا أدرك العربان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون كخطابهم لبعضهم البعض، وهو ما جاء من بعد تنبيها للوفود وتقريعا لأجلاف تميم فى وحى يقول:

﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ (٤ـ٥/ الحجرات).

لكن تميما ما كانت لتفهم لغة التمدين المدنى بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها

---

(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٣٧.

الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت تؤجل ذلك الإعلان ما أمكن، وتعلنه وهى عزيزة متعالية فى وهمها، ويتمثل ذلك فى قول الوفد التميمى لسيد الخلق: «يامحمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا».

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبى مغزى كل تلك المناورة، إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزتها، وتبسم سيد الخلق، فرد بهدوء الواثق المطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل»، ليقوم عطارد بن حاجب يعدد ممكنات تميم وعظمها يقول:

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم؟

فمن فاخرنا فليعدد مثلما عِددنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نُعرف بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا

وأمر أفضل من أمرنا.

ويجلس عطارد يلبس أثواب التكبر الأنف، ويصبح المطلوب رداً مناسبا يكسر ذلك الكبرياء ويرغم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبى بنفسه، حتى لا يكسبه قيمة لا تليق به، إنما يشير إلى ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى، ويقول له: «قم يا ثابت فأجب الرجل»، ويقوم ثابت ليقول بهدوء هادر المعانى:

الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله.

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا

واصطفى من خيرته رسولا

أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا،

فأنزل عليه كتابا وائتمنه على خلقه،

فكان خيرة الله من العالمين،

ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوى رحمه أكرم الناس أحسابا وأحسن وجوها وخير الناس فعالا.

وينتقل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى فى خطابه ليردف مهدداً منذراً متوعداً:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحن!!

فنحن أنصارالله ووزراء رسوله،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات.

والسلام عليكم[٢٦].

وتفهم تميم الرسالة، وتتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - فيقول ناقلا الحديث إلى مستوى آخر، تخفيفا عنهم وتهدئة لروعهم: «اقبلوا البشرى يابنى تميم»، لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم: «يارسول الله لقد بشرتنا، فأعطنا». وهكذا انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب، ويستجيب الرسول، «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأحسن جوائزهم»[٢٧].

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفداً عارفا أقدار الناس، ومن أعلى من النبى قدراً؟ لذلك ما أن هبطوا عن ركائبهم حتى هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يقبلوها، فاستحقوا أن يصفهم النبى بقوله: «هم خير أهل المشرق»[٢٨].

وتتوالى الوفود

ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمى بن عامر رأس الوفد ليقول للنبى:

أتيناك نتدرع الليل البهيم

فى سنة شهباء

ولم تبعث إلينا بعثا

---

(٢٦) نفسه: ص ٣٨، ٣٩.
(٢٧) نفسه: ص ٣٥، ٤١.
(٢٨) نفسه: ص ٤٤.

يريد أن يقول أنهم أتوه طوعا لا كرها، لترد عليهم الآيات ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ (١٧/ الحجرات).

ثم وفد عبس، ووفد فزارة، ووفد مرة «فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة»، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواق فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبى أرض عقيق بنى عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتب فى أديم أحمر، ثم وفد جعده، وأقطعهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيعة بالفلج وكتب لهم بذلك كتابا، ثم وفد قشير بن كعب «فأقطعه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قطيعة وكتب له كتابا»، ثم وفد بنى البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر. وربيعة عبد القيس وتغلب. وكانت تغلب نصارى جاءوا النبى يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يقرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا[٢٩]، أما وفد عامر بن صعصعة فقد جاء على رأسه عامر بن الطفيل وإربد بن مقيس. وعامر من القبائل الكبرى الشامخة، وما أن وقف عامر بن الطفيل أمام الرسول حتى دخل فى المفاوضة مباشرة وبسرعة قائلا: «يامحمد؛ مالى إن أسلمت؟ فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك ولا لقومك، قال: أفتجعل لى الوبر ولك المدر؟ قال: لا، ولكنى أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس، وهو من رد على العريان الذين دعوه للإسلام:

والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟[٣٠].

فيغضب عامر بن الطفيل، ويخرجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخا:

أوليست لى؟ (أى الخيل)

إذن

لأملأنها عليك خيلا ورجالا[٣١].

وخرج مع رفيقه إربد ليتبعهم النبى بدعوته: «اللهم اكفنيهما»، وتحكى كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر فى الطريق، أما إربد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

---

(٢٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، من ص ٤٠ : ٥٦.

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٥١، ٥٢.

(٣١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٥١.

والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندى الآن فأرميه بالنبل
حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه فأرسل الله
عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما[٣٢].

وتتتابع الوفود فتأتى شيبان وطى ونجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكنده والصدف وخشين وسعد هزيم وبلى وبهراء وعذره وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداربين والرهاويين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استتمت جزيرة الجزيرة جميعا وأوعبت طاعتها أمام النبى الكريم، تؤكد أن التاريخ على وشك استكمال حلقته الانتقالية الكبرى، وأن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعا وحقيقة، وأن الدولة المركزية قد تسنمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة موحدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مكدرات عكرت صفوه ونصره، فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد الغريب الشأن العجيب الأمر، وفد بنى حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدو له شأن اسمه مسيلمة بن ثمامة، نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة، وهم يرون وفده يحيط به، يسترونه بالبرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبى وبيد النبى قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبى رسالة برقية موجزة:

إن شئت
خليت بينك وبين الأمر
ثم جعلته لنا بعدك

لكن ليرد سيد الخلق هادئا مستصغراً شأن ذلك المتكبر الكبير فى قومه: «لو سألتنى هذا القضيب ماأعطيتكه»[٣٣]. فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان فى قومه نبيا، وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوفا بالاحترام مستوراً بالثياب، وإنه ما جاء يعلن ولاءً بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دولا بين محمد وبينه، حيث أعلن فى أهله من حنيفة اليمامة: إنه قد أشرك مع محمد فى النبوة والحكم (الأمر)، وأخذ يرسل لهم آيات مسجوعة يزعمها وحيا، وشهد للنبى بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعا، وأرسل بعد عودته بلاده للنبى الصادق رسالة تقول:

---

(٣٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٥٣.
(٣٣) نفسه: ص ٤٦.

من مسيلمة رسول الله

إلى محمد رسول الله

سلام عليك؛ أما بعد؛

فإنى قد أُشركت فى الأمر معك

فإن لنا نصف الأرض

ولقريش نصف الأرض

ولكن قريشا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآبقة بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية موجزة صارمة المعانى هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من محمد رسول الله

إلى مسيلمة الكذاب (!)

السلام على من اتبع الهدى(!)

أما بعد

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين[٣٤].

وتسلم بلاد العرب وتدخل فى طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيين فى البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك منهم، لتظل حنيفة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربى المتوحد ترفض الانضواء، بل ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المتنبىء مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هى السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يضاف إلى مجموع الدوافع التى حثت الوفود تدفعها دفعا إلى يثرب، تطمع فى حكمة قيادة يثرب إزاء الأزمة القاحطة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشقاقية التى نشطت فى ذات العام، يمثلها مسيلمة فى اليمامة، والأسود العنسى فى اليمن.

(٣٤) نفسه: ص٤٧.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادى وليس وحدويا، فهو يطلب مشاركة حنيفة فى أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يدرك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السير الصحيح لخط التاريخ نحو توحد الجزيرة جميعا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة، ومن هنا قام يطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، معبرة عن موقف قبلى يعاكس الحتمية وضرورتها، ومفصحة عن موقف قبلى إقليمى تجزيئى يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعا بعد ذلك.

أما اليمن التى كانت تعانى بشدة من التسلط الفارسى على مقدراتها، فقد كانت إبان تطور أطوار الدعوة الإسلامية فى واد آخر، كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس، ويظهر بين الثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطورى (الأسود العنسى) الذى قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن وتطهيرها من العسكر الكسروى، وفى تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن مع عماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمى له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذى لقب بالأسود العنسى لوفود يثرب وعمال الرسول المنوبين من قبله:

أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه[٣٥].

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمى نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء[٣٦] العريق فى حضارات الجنوب الحضرمى القحطانى، رافعا إياها كأيديولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، معارضا بها (الله) رب الشمال العدنانى.

أما النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد وقف من تلك الحركات موقفا متأنيا يعتمد الصبر الهادىء، فاليمن قبائل كبرى عسكرية منظمة، كذلك اليمامة لم يكن أمرها بأقل شأنا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالف فى امتداد بوادى الجزيرة نحو الشمال، ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم، ليتيح لعماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمى تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم

(٣٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص ١٢٦.
(٣٦) ارجع فى ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمى.. سبق ذكره.

القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير الملتبسة.

وفى تلك الحجة بدرت من النبى أقوال تشير إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبى الزبير عن جابر: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عنى مناسككم فلعلى لا أحج بعد عامى هذا»[٣٧]، ثم ما كان من آيات تحمل روح الختام، من قبيل ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

نُصرت بالرعب، وأُعطيت الخزائن وخُيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتى، وبين التعجيل،
فاخترت التعجيل[٣٨].

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يقاوم الأوجاع، ويستمر فى سياسة الدولة، وفى صفر بعد حجة الوداع بشهرين، يؤذن فى الناس بغزو القياصرة فى بلاد الشام، ويؤمر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة، ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يوعبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيريه أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. لكن ليقف التاريخ فى مواقفه الناقلة المحولة، لترهف السمع إلى الصحابة يسجلون فى مسامع الرواة، أنه فى أول شهر ربيع الأول يطلب النبى عبده أبا مويهبة، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا فى حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع متحاملا على نفسه، ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

السلام عليكم يا أهل المقابر

ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى (؟!)

---

(٣٧) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٨٩.
(٣٨) نفسه: ص ١٩٧.

ويلتفت إلى أبى مويهبة يقول له:

إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة.

ليقاطعه عبده المخلص

بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى - لهفى عليه:

لا والله يا أبا مويهبة

لقد اخترت لقاء ربى والجنة

ثم يروى أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس (٣٩).

وهنا ننصت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبى بكر تقول:

رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله ياعائشة؛ وارأساه، قالت: ثم قال: ما ضرك لومت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟! قالت: قلت والله لكأنى بك لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى، فأذن له.. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تؤكد الروايات أن ذلك الرجل الذى أغفلت عائشة اسمه كان عليا بن أبى طالب)، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتى (٤٠).

ورغم اشتداد الوجع، فقد لحظ سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يتلكأون فى طاعة أوامره، فى بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

---

(٣٩) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٤٠) نفسه: ص ٢٤٦، ٢٥٩.

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول مناديا:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته، لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، كان أبوه خليقاً بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلغهم أن الوجع قد اشتد بنبيهم، فتوقفوا هناك ينتظرون ما يسفر عنه الأمر(٤١).

وهنا ننقل، فقط مجرد نقل دون أى انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوى رؤيته لما يحدث فى تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبى بكر وعمر وسائر القوم «وقد تعلم أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولا، وتخلفوا عن الجيش أخيراً، ليحكموا قواعد ساستهم، ويقيموا عمدها ترجيحا منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتثاقلهم عن السير، ولا بتخلف من تخلف منهم عن الجيش، أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته - صلى الله عليه وسلم - وكان - بأبى وأمى - أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين على بن أبى طالب على سكون وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعلى عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد: وإنما أمر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة لياً لأعنة البعض، ورداً لجماح أهل الجماح منهم، واحتياطا من الأمن فى المستقبل من نزاع أهل التنافس، لو أمر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى ما دبر - صلى الله عليه وسلم - فطعنوا فى تأمير أسامة، وتثاقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبى بربه، فهموا حينئذ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، وبعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلف منهم عن الجيش وفى أولهم أبو بكر وعمر».

ويحكى لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبد الله بن عبد الرحمن «فتثاقل أسامة وتثاقل الجيش بتثاقله، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبى أنت وأمى؛ أتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى، فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يارسول الله إن أنا

---

(٤١) نفسه: ص ٢٦٠.

خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفى قلبى قرحة، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يارسول الله إنى أكره أن أسائل عنك الركبان، فقال: نفذ ما أمرتك به، ثم أغمى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، لعن الله من تخلف عنه، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبوبكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات فى تلك الساعة»[٤٢].

ويستمر الشيخ شرف الدين فى قراءته لتلك السويعات الفاصلة فى تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبى بكر وعمر لم يفلح، وعادا للمدينة والرسول فى النزع الأخير ومعه على بن أبى طالب، ليورد لنا ما أخرجه البخارى بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

> لما حضر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال النبى: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبى قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبى كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبى قال لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوموا ـ قال عبد الله بن مسعود ـ فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرفوا فى قول عمر: «إن النبى قد غلب على الوجع» فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت: «إن النبى يهجر»، لكنهم هيئوا العبارة اتقاء لفظاعتها فى حق رسول الله[٤٣].

وبعد....

فقد حاولنا السعى وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصطفى أهم

---

(٤٢) عبدالحسين شرف الدين الموسوى: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، ١٩٦١، ص ٩٠، ٩٣.
(٤٣) نفسه: ص ١٥٥، ١٥٨.

الأحداث المتعلقة بحروب دولته التى أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهة التاريخ مع خط سيرها المنطقى، وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخل عاطفى أو وجدانى، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث، ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرين، والقابلة أيضا للسقوط فى خطأ الإنسان بكل ماله وما عليه، وهو الخطأ الذى سنحوز به على ثواب الأجر الواحد. لكن الذى لا مشاحة فيه أنه لا يصح أبداً أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المتميز على العالمين، ولا جدال أنه بعدما سردناه وقرأناه فى عملنا هذا يجب أن نخفف من غلوائنا، ونتحفظ قليلا فى إطلاق الصفات على قادة ورجال لم يصلوا أبداً إلى قامة ذلك السيد الرائع، الذى توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطورى الهادىء لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية، فكان عكس كل السابقين الذين حكى لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه، ليثبتوا نبوتهم، لقد اتسق نبى الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل، فكان مؤسسا للعقل فى النبوة والنبوة فى العقل، وخاتما للنبوات، وبادئا لدور الإنسان على الأرض، وصانعا لكرامة عربية جديدة.

بأبى أنت وأمى يارسول الله، فداك أولادى وأموالى ونفسى. صلى الله عليك وسلم، وعليك صلاتى وسلامى، وتسليمى. ولك ولرب العالمين إسلامى.

المصــــادر(*)

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الكتاب المقدس.

٣ ـ القاموس المحيط.

٤ ـ المنجـــد.

٥ ـ البخارى

٦ ـ أبو داود

٧ ـ الترمذى

٨ ـ مسـلم

} كتب الحديث الشريف

المصادر مرتبة (ألف . باء) حسب اسم المؤلف

٩ ـ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ .

١٠ ـ أمين (أحمد) : فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط ١٤ ، القاهرة، ١٩٨٧ .

١١ ـ ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩ ، ص ٤٢ .

١٢ ـ (البجاوى) محمد، ومحمد أبو الفضل: أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣ .

١٣ـ الدياربكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت.

١٤ ـ البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

١٥ ـ البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ .

١٦ ـ ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

(*) جميع المصادر بهذه القائمة أساسية ودخلت بشهاداتها فى بحثنا كلها.

١٧ ـ الثعلبى النيسابورى: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت.

١٨ ـ الجاحظ: الرسائل: جمع ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣ .

١٩ ـ ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتينر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.

٢٠ ـ ابن حبيب: المنمق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط، ١٩٦٤ .

٢١ ـ حميد الله (محمد): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥ .

٢٢ ـ ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ .

٢٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د. ت.

٢٤ ـ ابن خياط (خليفة): الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العانى، بغداد، ط ١، ١٩٦٧ .

٢٥ ـ دلو (برهان الدين): مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى، الفارابى، بيروت، ١٩٨٥ .

٢٦ ـ الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠ .

٢٧ ـ زيعود (د. على): قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢ .

٢٨ ـ سالم (د. سالم عبدالعزيز): دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠ .

٢٩ ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت. وطبعة دار صادر، تحقيق أوجين متنوح، بيروت، ١٩٥٨ .

٣٠ ـ السقاف (أبكار): نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.

٣١ ـ ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ.

٣٢ ـ السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨ .

٣٣ ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠ .

٣٤ ـ الشريف (أحمد إبراهيم) : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، د. ت.

٣٥ ـ شلبى (د. أحمد) : السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧.

٣٦ ـ الشهرستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١.

٣٧ ـ الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨.

٣٨ ـ الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢.

٣٩ ـ صالح (أحمد عباس) : الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤.

٤٠ ـ الأصفهانى: الأغانى، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٢، د. ت.

٤١ ـ الطائى (حاتم) : ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، بيروت، د. ت.

٤٢ ـ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

٤٣ ـ ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

٤٤ ـ عبدالرحمن (عبدالهادى) : جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨.

٤٥ ـ على (جواد) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

٤٦ ـ على (جواد) : تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، بيروت، ١٩٨٣.

٤٧ ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٤٨ ـ ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٩٨٦.

٤٩ ـ القمنى (سيد محمود) : دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع، أكتوبر ١٩٨٦.

٥٠ ـ القمنى (سيد محمود) : الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠

٥١ ـ القمنى (سيد محمود) : حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣.

٥٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨ .

٥٣ ـ الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ .

٥٤ ـ مدكور (د. إبراهيم بيومى): فى الفلسفة الإسلامية .

٥٥ ـ المسعودى: مروج الذهب، تحقيق محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت .

٥٦ ـ مروة (حسين): النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابى، بيروت، ط٦، ١٩٨٨ .

٥٧ ـ المقدسى: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦ .

٥٨ ـ الموسوى: (عبدالحسين شرف الدين): النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، العراق، ١٩٦٦ .

٥٩ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥ .

٦٠ ـ الواقدى: كتاب المغازى، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، وأيضاً نشر مؤسسة الأعلامى، بيروت، د. ت .

٦١ ـ اليعقوبى: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤ .

٦٢ ـ أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩ .

من أعمال المؤلف

١ ـ الموجز الفلسفى: دار السياسة، الكويت، د. ت، (نفد).

٢ ـ مشكلات فلسفية: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية.

٣ ـ أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة، مدبولى الصغير، القاهرة.

٤ ـ الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، مدبولى الصغير، القاهرة.

٥ ـ النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، مدبولى الصغير، القاهرة.

٦ ـ الأسطورة والتراث، مدبولى الصغير، القاهرة.

٧ ـ حروب دولة الرسول: الجزء الأول، بدر وأحد، مدبولى الصغير، القاهرة.

٨ ـ حروب دولة الرسول: الجزء الثانى، مدبولى الصغير، القاهرة.

٩ ـ قصة الخلق؛ منابع سفر التكوين، مدبولى الصغير، القاهرة.

١٠ ـ إسرائيل، التوراة، التاريخ، التضليل: مدبولى الصغير، القاهرة.

١١ ـ رب الزمان: مدبولى الصغير، القاهرة.